ميسلون هادي

# العيون السود








# العيون السود

رواية

رواية

# العيون السود

ميسلون هادي



2002

رقم التصنيف : 813.9
المؤلف ومن هو في حكمه· ميسلون هادي
عنوان الكتاب. العيون السود
الموضوع الرئيسي 1- القصص العربية
2- العصر الحديث
رقم الإيداع: 591 / 3 / 2002
بيانات النشر : عمان. دار الشروق
● تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

ردمك ISBN 9957 - 00 - 191 - 4

● العيون السود .
● ميسلون هادي .
● الطبعة العربية الأولى : الإصدار الأول 2002 .
● جميع الحقوق محفوظة © .



دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف · 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس : 4610065
ص.ب : 926463 الرمز البريدي : 11110 عمان – الاردن

دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله: المنارة – الشارع المنارة – مركز عقل – التجاري هاتف 02/2961614
نابلس: جامعة النجاح – هاتف 09/2398862
غزة: الرمال الجنوبي قرب جامعة الأزهر هاتف 07/2847003

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو إستنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

**All rights reserved.** No Part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher

■ التنضيد والاخراج الداخلي وتصميم الغلاف وفرز الألوان و الأفلام :
**دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر والتوزيع**
هاتف : 4618190/1 فاكس 4610065 / ص .ب . 926463 عمان (11110) الأردن

Email : shorokjo@nol.com.jo

# الفهرس

# تابوت باربي

# -1-

الجهنمية توردت وجرى لون الجحيم في عروقها فتفجرت أغصانها الخضراء المتسلقة فوق القمرية، عن ورود حمراء يانعة تتدلى على شكل عناقيد تتساقط منها بين حين وآخر أوراق رقيقة جففتها الشمس فهوت خفيفة ميتة إلى الأرض.

– زبالة ... إنها تحيل المرآب إلى زبالة.

قالت الخالة –كثيرة الشبه بمها صبري– وهي تدفع الورق اليابس المتساقط على أرض المرآب بمكنسة يدوية ذات عصا طويلة تشبه القامة الفارعة لحافية القدمين سامية جمال. كانت يمامة تجلس في أرجوحتها العاطلة التي تتدلى فوقها أغصان الياسمين والعنب الحلواني وثمار العرموط، وتراقب خالتها كيف تنحني على الورق اليابس بين الحين والآخر وتكوّمه أمامها ثم تدفعه بشعر سامية جمال إلى المكرفة وتحمله إلى برميل القمامة.

يمامة هي البنت الوحيدة والصغرى للعائلة .. أصبحت في الخامسة والثلاثين ولا زالت صغرى .. ماتت جدتها وماتت أمها ومات أخوها الأصغر، ثم تزوج اثنان من إخوتها وهاجرا، أحدهما إلى اليمن والآخر إلى نيوزيلندا مثل قيصرين عبرا نهر الربيكون إلى غير عودة .. أما أبوها فظل يقرأ سورة ياسين بالقرب من رأس ابنه وينظف مرمرة قبره من الغبار وأوراق اليوكالتبوس المتساقطة فوقه، وأحياناً يقتطع الأدغال من حوله ويزيح حفنات جديدة من

التراب في شق محفور بالقرب منه إلى أن جاءه الموت، فلم يكلفه إلا ملابس بيضاء جديدة وخطوتين صغيرتين إلى تلك الحفرة.

أزمنت صورهم، الأحياء منهم والأموات، على جدران غرفة المعيشة، ثم أخذ يحدث شيء غريب لتلك الصور لم تجد له يمامة تفسيراً في البداية ولم تعثر على إجابة لتساؤلها عنه إلى أن اكتشفت الصور كلها مكوّمة فوق بعضها البعض البعض داخل كرتونة صابون فارغة ملقاة في زاوية المخزن. كانت يمامة كلما تأملت إحدى تلك الصور وأمعنت النظر فيها اختفت من فوق الجدار . . . وتركت وراءها فراغاً نظيفاً أفتح من لون الجدار الذي شابته الأوساخ والأتربة. في البداية اختفت صورة أبيها ثم اختفت صورة جدتها ثم اختفت صورة أمها وبعدها صورة أخويها وأخيراً صورة أخوها الصغير التي كانت قد مكثت على الجدار لفترة أطول، إكراماً لاستشهاده، قبل أن ترفعها الخالة وترميها إلى كرتونة الصابون الموضوعة فوق تلّ من صناديق مليئة بالدمى والألعاب والألبومات والملابس الثقيلة والكتب المدرسية والحقائب والأحذية والتحف المنزلية والستائر والأواني والكهربائيات، وكلها كانت ذات يوم تجعل منزلي أخويها يشرقان بالحياة. واليوم هي ملقاة في تلك التوابيت الكرتونية التي وضعت على شكل تلّ منخفض، يتربع في القمة منه ذلك الصندوق الفواح بعطر الصابون وتحته مباشرة باكيت كبير زهري اللون مرسوم عليه في جميع الجهات صورة لباربي وهي تجلس أمام منضدة الزينة وتمشط شعرها الذهبي اللامع الطويل.

شعر يمامة فاحم السواد وعيناها زرقاوان تبرقان كالبلور عندما تنعكس عليهما أشعة الشمس .. وكلما التقاها أحد لأول مرة أطال التحديق فيها وهي تشعر برغبته في أن يلمسها كي يتأكد أنهما ليستا من زجاج. ولأن الأطفال هم أقل الكائنات براءة على وجه الأرض ولأنهم يفعلون ما يحلو لهم دون حساب أو تفكير في الأذى الذي قد يلحق بالآخرين .. فلقد مدّ أكثر من واحد منهم إصبعه في عينيها بعد أن أثارته حركة الكرتين الزرقاوين داخلهما متوهماً -على الأغلب- أنه بالإمكان إخراجهما من مكانهما واللعب بهما أو دحرجتهما على الأرض .. حدث ذلك أكثر من مرة في بيت أو حافلة أو حفلة زفاف .. أوكلما .. رفعت عنهما نظارتها الطبية فأضاعتها أو سقطت منها في أي مكان .. سقطت أوراقها من حضنها يوم أمس، وقبله بأيام سقطت من بين يديها كومة كتب تزحلقت ببساطة من حضنها إلى الخلف دون أن تشعر بها على الإطلاق .. وبعد قليل لكزها شاب في كتفها وقال لها:

- كتبك سقطت منك.

كان كثير الشبه بأحمد رمزي .. له عينان لوزيتان مسحوبتان إلى الخارج ذو شعر أسود ناعم مصفف إلى الخلف .. خجلت كثيراً من نفسها لا منه .. فكيف تسقط منها حزمة الكتب بأكملها دون أن تنتبه لذلك؟ ....

كانت مها صبري لا تزال تدمدم مع نفسها:

- يا إلهي ألا يكف هذا الورد عن التساقط؟ ... هذا مطر وليس وردا ...

قالت يمامة في نفسها «ستقلعها إذن» .. ستقلع الشجرة الجهنمية مثلما قلعت شجرة الزيتون وشجرة العرموط وشجرة المشمش والنخلات الأربع .. إنها تحب النظافة كثيراً وتكره أن تتساقط الأشياء من حولها وكأنها تريد للورد أن ينمو وينمو وينمو ثم يموت فلا يتساقط .. ولكن ليس كومة الكتب.. لم تتمكن من نسيانها لحظة واحدة لأنها ببساطة كانت تسمع طرقات الولد على كتفها (وأقسمت مع نفسها أنها كانت مسموعة) وكأنها تنشلها من مياه عميقة كانت تغرق فيها فلا تشعر بشيء مما يجري حولها أو تسمع شيئاً مما يقال .. أخرجت رأسها من الماء جَفِلة وقالت:

- نعم؟!

قال أحمد رمزي:

- كتبك كلّها على الأرض.

عن أي أرض يتحدث؟ ظلت لوهلة لا تعرف أين هي بالضبط؟ أعلى الأرض أم تحت البحر أم فوق السماء؟ .. أية كتب تلك التي يتحدث عنها وكيف سقطت منها وأين؟ ثم تك .. وانفتح غطاء الأكسجين عن عدة الغوص العميق فاندفعت الدماء ساخنة إلى وجهها، ومدّت يدها إلى الشاب لتتلقف منه كتبها التي سقطت جميعاً من حضنها وهي في رحلة غوصها في المياه العميقة.. هل ظنّ أنها غارقة في الحبّ؟ .. قالت لنفسها هل ظنّ ذلك؟ .. ولكن أذان الظهر ارتفع في جامع قريب، فقال لها حازم «أعرف لماذا تحبين أذان الظهر؟ إنه يتوقت مع ظفائرك الطويلة وهي

تركض خلفك وأنت عائدة من المدرسة جوعانة .. هلكانة.. تقتحمين المنزل كما الاعصار لترفعي الغطاء عن قِدْر الرزّ لتتأكدي من أنه قد استوى وأصبح جاهزاً للأكل..

عندما يقول مثل هذا الكلام تلتمع نقطة مضيئة، ستبقى مضيئة في الذاكرة، وتكفي لمحو كلّ ظلاماته اللاحقة .. عندئذ أخبرته أن طبق الرزّ البرياني لا يقلّ عبقرية عن مخطوطة ألف ليلة وليلة وقالت له أن أعظم المخترعين في العالم هم الطهاة .. وأنه ليس الكهرباء ولا السيارة ولا الهليكوبتر ولا الصاروخ ولا الطائرة ولا الكمبيوتر ولا الفاليوم ولا الأسبرين ولا الباثادين ولا الراديو ولا التلفزيون ولا موس الحلاقة ولا فرشاة الأسنان ولا المكواة ولا السشوار ولا آلة حفر الأسنان ولا الدبوس ولا أحمر الشفاه ولا الهاتف ولا الكاميرا ولا الفيديو هي أهم أعظم الاختراعات في العالم .. أعظم المخترعين في العالم مجهولون .. مجهول أضاف النعناع إلى فطيرة الجبن، مجهول أضاف الزعتر إلى المعكرونة، مجهول أضاف الشبنت إلى رزّ الباقلاء، ومجهول أضاف الهيل إلى طبق المحلبي ومجهول أضاف القرنفل إلى رز الجزر ومجهول أضاف الدارسين إلى الهريسة، وعدة مجاهيل وضعوا ملاعق صغيرة من مسحوق أعواد الكبابة والقرنفل والدارسين والكمون والهيل والفلفل الأسود والزنجبيل مع بعضها حتى اكتملت بهارات البرياني على طريقة ألف ليلة وليلة الذي نما واتسع وهو ينتقل من ناسخ إلى آخر، كل واحد منهم يضيف إليه ملعقة من مذاقه حتى انتهى إلينا بالشكل الذي هو عليه الآن .. هؤلاء هم أعظم المخترعين .. ليس اينشتاين ولا نيوتن ولا أديسون ولا بيل ولا

ماركوني هم أعظم المخترعين في العالم ولكنهم المجهولون الذين اكتفوا بأن تدل عليهم صناعتهم مثلما يدلّ الكون على الخالق..

خرج مع الخارجين من المحطة ثم اقترب منها .. وتوقف قربها، ثم وضع الحقيبة التي في يده على الرصيف وراح ينظر في ساعته.. شاب ممتلئ الوجه فارع الطول، يبدو عليه الضجر من حرّ الظهيرة اللاهب ولكن وجهه مشدود ومتورد وكأنه كيكة خرجت لتوها من الفرن .. عندما خلع نظارته الشمسية ليمسح العرق المتصبب من جبهته .. بدأ لها الشبه واضحاً ومذهلاً .. وأدركت على الفور لِمَ لفت نظرها منذ الوهلة الأولى التي وقعت عيناها عليه.. إن لَه جبهة حازم النظيفة العالية وعينيه السوداوين الصغيرتين اللتين تشرقان ببريق حاد فيه نزق المتمردين وجنونهم. عاد فوضع النظارة الشمسية على عينيه فتراجع الشبه بينه وبين حازم قليلاً إلا أنه لم ينمحِ تماماً. لم تستغرب يمامة وجود مثل هذا الشبه بين اثنين من البشر إنما استغربت أن يقع أمام عينيها فجأة ويجاورها هي بالذات من بين هذا الحشد الهائل من البشر الموجود في هذا المكان. ثم قالت لنفسها: لو أن لهذا الرجل وجهاً أكثر نحافة وغمازة في الحنك لكان الشبه بينه وبين حازم هائلاً ويبعث على الشك.

انطلقت صفارة إنذار وهمية فابتلعت كل الأصوات الأخرى وغيبتها في سراط طويل خرق الآذان كلها، وظل يركض بسرعة الريح باتجاه أفق بعيد ومجهول. قالت يمامة لنفسها «رب اجعلها نعمة دائمة علينا» ثم فكرت أن صوت صافرة الإنذار حلو .. بجد حلو .. وأنهم يلمعونها ويخافون عليها من عدم الاستعمال ..

فيجربونها بوهمية بين مرة حقيقية ومرة حقيقية أخرى .. فيدرؤون عنها الصدأ ويجنبونها النسيان. ولكن سرعان ما عاد صمت الصافرة ليفتح أبواب المكان ويفصح عما فيه من لغط المارة وأبواق السيارات ونداءات الباعة وضجيج العجلات في ذهابها وإيابها تحت سيول من شمس آب لا ترحم. كانت الحافلات المهدودة المغبرة تقترب فيندفع إليها حشد من الأشخاص المنتظرين على الرصيف، ثم سرعان ما تقتطع الحافلة ببابها جزءاً منهم وتنطلق مخلفة وراءها الغبار والدخان والحر اللاهب .. كانت يمامة في غيبوبة عن العالم وكلما ازداد الضجيج غابت من جديد عن العالم ... هكذا هي دائماً عندما تشعر أنها واقعة في الجحيم.. تنقذها العتبة .. في أي جحيم تكون فيه ومتى تريد ترفع نفسها على عتبة وهمية وتصبح فوق الغبار وفوق الضجيج وفوق اللون الأحمر وفوق الحافلات. تصبح في النسيان تماماً فتتمكن في تلك اللحظات، ويا للعجب، من أن تتبرد بضحكة صغيرة أو حوار مألوف دار مئات المرات بينها وبين نفسها. سمعت صوتاً يناديها دون اسم فالتفتت ووجدت ذاك الشاب الممتلئ الذي كان يقف بقربها وهو يدعوها للصعود إلى الحافلة .. إنه صاحب العينين السوداوين الشبيهتين بعيني حازم .. فيا إلهي .. لماذا يناديها ويحجز لها مكاناً بقربه ..شكرته وجلست بجواره على المقعد وهي تقول لنفسها «يا ترى من يكون؟» .. ثم نظرت إلى ساعتها فوجدتها متوقفة.

من قريب لاحظت أنه يبدو أصغر منها سنّاً، وعندما وضعت كتاباً بينها وبين وجهه لاتقاء أشعة الشمس، ومن تحت حافة

الكتاب نظرت إلى ساعته اليدوية فوجدتها تشير إلى الثالثة. أنزلت الكتاب إلى حضنها مرة أخرى ليتسنى لها إخراج النقود من الحقيبة .. فرأته وهو يرفع الكتاب ويضعه قرب وجهها ليحميه من الشمس أثناء انشغال يديها بدفع الأجرة. لو كانت قد غضبت في تلك اللحظة على حركته الجريئة تلك لانتبه المحصل وربما أحرجها بنظراته الساخرة وليس ذلك هو السبب الذي جعلها لم تغضب، بل لأنها ما شعرت أساساً بأنها يجب أن تغضب أو تحتدّ أو تنزعج .. وإنما أحسّت فقط أن قلبها قفز من مكانه وطار مثل كرة مطاطية قفزت من فوق الجدار فهوت في حديقة الجيران.

قالت له:

ـ شكراً

انتبه إلى أن مهمة دفع النقود قد انتهت فنظر إليها كالنائم ثم أعاد الكتاب إلى مكانه دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. خارج النافذة كان ثمّة رجل وكلب يضحكان .. لم يكونا يضحكان .. كانا يفتحان فميهما لاهثين من شدة الحرّ. وكان الشارع بأكمله يلهث من الصهد.

ـ ضم رأسك عيني.

قال سائق الحافلة للطفل الذي كان يتطلّع من النافذة إلى موكب رسمي مسرع كان يمر بالقرب من الحافلة تتصدره وتتأخر عنه سيارتا الشرطة برمشات زرقاء تبرق على سقوفها، ويحفّ به على الجانبين صفان من الدراجات النارية. زاد سائق الحافلة من سرعته محاولاً اللحاق بذيول ذلك المركب قبل انطفاء الإشارة الخضراء ... صاح أحد الراكبين:

- دير بالك يا معوّد .. لقد اشتعل الأحمر

لكن السائق مضى في عجاج الموكب محاولاً اللحاق به على الرغم من أنه قد تقدم عليه بمسافة راحت تتسع شيئاً فشيئاً كفجوة يصعب أو يستحيل ردمها. قال السائق بلا اكتراث:

- كان الضوء أصفر ولم يكن أحمر.

كانت طفلة من بعيد تقف مع أمها على الجزيرة الوسطية للشارع وفجأة أفلتت يدها من يد أمها لتصبح في نهر الشارع. صاحت يمامة هي والشاب الذي قربها بصوت واحد:

- دير بالك.

قالا الجملة نفسها في الوقت نفسه .. بدا ذلك أخرق ومثيراً للضحك ولكنهما لم يضحكا .. بل أطبق عليهما خجل ساكت لا مفر أمامه من الابتسام ثم سرى من كتفه إلى كتف يمامة تيار من الارتباك يفصح عن اتفاق غير معلن .. إذ يبدو أن كتفيهما كانا متلاصقين طوال الوقت بأشدّ مما يتحمله حرّ تلك الظهيرة الشمطاء، مع ذلك لم يحاولا فكّ ذلك الاشتباك أو يبديا الضيق منه .. إنما صمتا فقط وتركا كتفيهما يقرران ما يشعران به .. ما هي إلا ثوانٍ مضت على تلك الصيحة الخرقاء حتى هتفا فجأة وقالا بصوتٍ واحد مرة أخرى:

- نازل .

ولو لا مظهراهما الجادان لأعتقد الآخرون بأنهما مهرّجان. ثم أشبعوهما بنظرات فضول بلهاء لا تجد القدرة على التحوّل إلى

نمائم أو تقوّلات، فغيّبها الغبار والهواء اللاهف بعد أن مضت الحافلة وتركتهما نازلين عند الكتف الترابي للشارع ينظران إلى بعضهما البعض باستغراب وشيء من الألفة .. «بالتأكيد أنه أصغر مني سناً» قالت يمامة لنفسها، وكان وجهه لا يزال مشدوداً ومتورداً وكأنه كيكة خرجت لتوها من الفرن زاده تعب الظهيرة وحرها اللافح حمرة وتوهجاً واشتعالاً.

كان العالم قد انقض من حولهما وأصبحا لوحدهما تحت شمس عمودية يمكن لها أن تحوّل رأسيهما –لو بقيا تحتها لفترة من الوقت– إلى أمخاخ مستوية جاهزة للأكل. ولكن الشارع أنجدهما فتركت لهما حركة السيارات السريعة فجوة قصيرة للعبور إلى الضفة الأخرى من الطريق حيث كان لا يزال بائع السجائر يجلس، ويا للغرابة، أمام حجره الصغير، وقد وفرت له أغصان شجرة اليوكالبتوس سقفاً ظليلاً يكفي لرأسه بالكاد. لم تكن الصحيفة في حضنه .. وهو نفس البائع الذي قد سأل يمامة في الصباح عندما وقفت بالقرب منه لابتياع علبة مناديل ورقية:

– كوفي عنان .. هل هو عراقي؟

# -2-

سألت يمامة خالتها في اليوم التالي:

- البيت الخالي الذي يجاورنا هل سكنه أحد؟

قالت الخالة وهي تتدلى كالعنكبوت من ثريا تنظفها.

- لا أدري

ولم يجدر بيمامة سؤالها سؤلاً مثل هذا في هذا اليوم العالمي للتنظيف .. يوم الأربعاء الدامي .. يوم تدور مراوح البيت كلها حتى توشك سقوفه على الطيران، ويوم لا يبقى ثمة شبر على الأرض بلا مكانس ولا دلاء ولاممسحات. كانت أمواج المياه تتقاذف كل الغرف، فتقذف محتوياتها إلى الخارج من أجل أن تجري لها الخالة غسيل المعدة المعتاد الذي يبدأ في ذلك اليوم منذ ساعات الفجر الأولى ولا ينتهي إلا قبيل الغداء بنصف ساعة تطارد فيه تلك المرأة المهووسة بالنظافة كل ذرة غبار وهباء وقذارة فتصبح -في ذلك اليوم ... يوم النفير العام- حتى بيوض الهوام التي لا تراها العين المجردة، معرضة للتعقيم والإبادة.

أبادت خمسين رأساً لساميا جمال منذ أن جاءت إلى المنزل، وحولت كل مناشف البيت وشراشفه ذات العمر المتوسط، إلى مماسح للتنظيف والتفريش ومسح الغبار .. ولم تعد يمامة تجد مكاناً ترمي فيه النفايات بعد أن عرض تلفزيون بغداد تقريراً علمياً مترجماً ذات يوم يقول فيه أن نوعاً من الأحياء المجهرية- لعله من

ذوات الخلية الواحدة التي تتكاثر بالانشطار، لا بالتزاوج- يمكن له أن يعيش في سلال المهملات التي يضعها البشر الأسوياء في زوايا المنزل.

مع زوال الشمس كانت ميكروسكوباتها قد توقفت عن العمل فأصبحت أكثر مرحاً ورغبة في الحديث. جلستا سوية في زاوية من زوايا الحديقة تصغيان إلى المساء كيف يتفجر في حدائق الجيران أضوية وأصواتاً وروائح تذكو وتتموج وتظل تنادي ولا تتوقف.. يصطخ النيون فجأة في بطون الأسيجة .. وتعلو ضحكات قريبة المنال وتنتشر في الجو روائح تراب محفور أو عشب مرشوش أو عطور أشجار قد غسلت أوراقها بالماء للتو .. وبالرغم من أنه كانت قد مضت أكثر من عشر ساعات على السؤال الذي سألته لها يمامة عندما كانت معلقة إلى الثريا في الصباح فإن خالتها قالت وكأنها تسمعه للتو:

– نعم .. لقد سكن البيت الخالي جيران جدد. إنهم من أطراف بغداد..

ثم انفتحت بعد ذلك مثل صنبور ماء:

– لقد انتهوا قبل أيام من طلاء واجهة المنزل .. صبغوها بلون وردي وأما النوافذ فجعلوها بيضاء واستبدلوا البوّابة الخارجية القديمة بواحدة بيضاء ذات مقابض ذهبية. وجاؤوا بفلاح نظّف الحديقة وشذب أشجارها واقتلع كل أدغالها ونباتاتها البرية التي تكاثرت بشكل مرعب حتى أحالت حديقة البيت إلى مزبلة .. وقد رأيت سيارة نقل تغادر بيتهم وهي ممتلئة بأوساخ الحديقة

وأغصانها الفائضة .. قام الفلاح أيضاً بتكريب النخلة وقطف التمر الناضج منها. كان عالياً جداً، وعندما صعد إليه قطع في طريقه السعفات التي تشابكت منذ مدة طويلة مع أسلاك الهاتف والكهرباء .. وعندما انتهوا من تنظيف البيت وحديقته وضعوا مصابيح جديد داخل المنزل وأكثر من زجاجة نيون خارجه .. لقد أعطيتهم جميع قوائم الماء والكهرباء والهاتف التي كان المحصل يسلمها لنا عندما لا يجد أحداً في المنزل.. فعلت ذلك عندما جاءني من طرفهم شاب في ملابس العمل يطلب قليلاً من الثلج.

توقفت الخالة فجأة عن الحديث وراحت تنظر إلى يمامة من فوق نظاراتها الطبية وسألتها بصوت فيه التفات واهتمام:

– هل رأيته؟

هزت يمامة رأسها بالنفي ثم حركت كفتها بلا مبالاة وقالت: ربما .. لماذا؟

قالت الخالة:

– كلا .. لا شيء.

ثم استطردت وهي تعاود حديثها من جديد:

– لقد كان يعاون العمال في أعمالهم.. وقد علمت منه أنه وعائلته قد باعوا بيتاً في أطراف بغداد واشتروا هذا البيت لينتقلوا إليه بسبب قربه من مكان عمله .. ولكنهم لم يكونوا قد انتقلوا فعلاً عندما جاء ليطلب الثلج .. ويبدو أنهم قد فعلوا ذلك يوم أمس .. لم ألحظ ذلك .. ولا كنت قد أرسلت لهم طعام الغداء للترحيب بهم.

ثم التفت صوتها مرة أخرى إلى يمامة وقالت وهي تخفض نظارتها من جديد:

– هل لاحظت أنت أحداً منهم؟

– كلا .. لم ألاحظ.

فقالت الخالة وكأنها تغلق صنبور الماء بعد أن انتهت الحاجة إليه:

– أخشى أن تعمّ الفوضى شارعنا هذا.

كان اشتعال النيون في الحديقة المجاورة مبهجاً وصاخباً ويوحي في العلن، بمشاعر أطفال وجدوا أنفسهم في مدينة ألعاب وملأوا الدنيا فرحاً وبهجة .. نظرت يمامة إلى خالتها فوجدتها تصغي إلى ذلك المساء الجميل القادم إليهما من خلف السياج، وعلى وجهها تعبير متكبر يتصنع الصمت واللامبالاة .. داهمتهما رائحة الشبوي الليلي بقوة فتحولت الحديقة عندئذ إلى مكان أكثر صمتاً وظلاماً واستكانة، ثم جاءت قطة سمينة وجلست على منتصف حافة السياج الذي يفصل بين الحديقتين فابتسمت الاثنتان بلا داع ولا معنى .. ابتسامة نمت عن إنشغال روحيهما بهذا الاشتعال البهيج الذي شبّ فجأة في الحديقة المجاورة والخشية من انتقال عدواه إليهما. كانتا مثل فراشتين.. واحدة دخلت إلى شرنقتها وأغلقت على نفسها الباب .. والثانية فردت جناحيها وراحت تحوم حول ذلك المصباح الساخن .. وهي تشعر أن بينها وبينه خيطاً يتراخى ويتوتر حتى هبط الليل فترنح الخيط وجنح إلى السكون.

– يمكن اليوم تموت.

وضعت الخالة صينية العشاء بينها وبين يمامة ثم جلست بعدها وأضافت:

– لا أعتقد أنها ستعيش حتى الصباح.

لم تجد يمامة الوقت الكافي لكي تسألها من التي لن تعيش حتى الصباح لأن صرخة ملتاعة عزلاء انطلقت من بيت هنوة الذي يقابل بيتهما تماماً، فقالت الخالة وقد انتابها شيء من الضيق من أن يتوقت ما تنبأت به للتو، مع وقت العشاء .. قالت:

– ماتت.

وكأنها تحسم أمراً كانت تنتظره فأصبح منتهياً كإطفاء النار تحت قدر مغليّ بعد أن أصبح مؤكداً أن ما في داخله قد أعطي الوقت الكافي لكي يستوي وينضج ويصبح جاهزاً للأكل.

## 3

" كي تحكم على الجمال يجب أن تكتشفه فجأة .. أن تجده أمامك مكتملاً مرة واحدة .. لا أن يكبر أمام عينيك وينمو يوماً بعد آخر لأن أعيننا ستعتاده في هذه الحالة ولن يمكنها أن تتبين بسهولة مناطق الجمال الحقة فيه" . هذا ما قالته الست هنوة التي ماتت البارحة عندما سألتها يمامة ذات يوم:

– لماذا النباتات الظلية التي في بيوت الآخرين دائماً أجمل من النباتات التي في بيتنا.

خرجت جنازتها من البيت نفسه الذي دخلت إليه عروساً قبل ثلاثين عاماً .. لم تكن صبية عندئذ بل امرأة في سن الشباب .. وعندما جاءوا بها في سيارة فولغا جديدة غريبة اللون .. كان الزقاق ملظوماً بالنساء اللواتي يقرصن ثيابهن تحت سراويلهن الداخلية لكي يبعدن أذيالها عن الماء فلا تتبلل وهن يشطفن أبواب البيوت وقد جعل ذلك المهرجان مرورها في الزقاق أشبه بموكب عرس يحفّ به صفان من الراقصات الحافيات. عبث الأطفال بمصابيح السيارة العملاقة بعد أن جثمت على الأرض كالسلحفاة وصعد البعض منهم فوق رفارفها المنفوخة ونظروا إلى داخلها عبر نوافذها المفتوحة دون خوف من الأمهات المنشغلات بالتطلع إلى ذيول موكب ذلك الزفاف المفاجئ . بعد ذلك بقليل جاءوا وطلبوا من الجيران كلّ ما لديهم من كراسي وآرائك .. صفوا بعضها في مرآب البيت ووضعوا البعض الآخر في الحديقة ..

بينما تأخرت بعض الكراسي بالوصول إلى مكان العرس لأنها صفت على شكل دائرة وسط الشارع، وأخذ المشاكسون من الأطفال يدورون حولها وهم يرددون ضاحكين وعلى عجل:

« الثعلب فات فات

وبذيله سبع لفات

يا بنات يا بنات

ليش ما تغسلون هدومي

لا .. لا .. الحية بالشط »

وعندما ذهبت يمامة مع أمها إلى العرس في الليل طلبت منها العروس أن تقوم لترقص مع باقي الصغيرات. امتنعت يمامة ، فضحكت العروس وقبلتها وقالت:

– تبدو خجولة.

خرجت الكراسي من كل البيوت مرة أخرى .. ووجم الأطفال هذه المرة بلا حراك وهم ينظرون إلى ذلك الصندوق الخشبي الطويل الموضوع فوق سقف السيارة .. وحاول أحدهم استدراج الآخرين إلى التكهن حول الوضع الذي تنام فيه هنوة داخل ذلك الصندوق .. وعندما لم يحظَ بجواب شافٍ من أحد وجم هو الآخر وانضم إلى صمت الآخرين .. طال صمتهم واتسع حتى غطى على أصوات عياط النسوة الباكيات اللواتي قدمن من كلّ بيت في الزقاق واحتشدن داخل المنزل ..ثم ابتسم الأطفال لبعضهم البعض بلا معنى وهم يؤمرون بالتنحي عن طريق السيارة

كي تتحرك .. وبعد قليل أحال المقرئ عبد الباسط عبد الصمد أصوات الصباح إلى صوت واحد أحد وحيد يبعث على الرهبة والإتيان بصوت خفيض عند الرغبة في التحدث.

في كلّ صيف كانت تقف على المنضدة التي يوضع عليها الآن جهاز التسجيل، وتمدّ يدها إلى عريشة العنب لتقطف عناقيده الناضجة وتوزعها على الجيران. كانت تنادي يمامة لتقف وتحمل لها السلة ريثما تمتلئ كانت أرجلها قصيرة ولكنها تملك، كأي عروس عدداً هائلاً من الثياب المنزلية الجميلة التي تهفهف كشاكشها وترفرف في كلّ اتجاه عندما تمشي أو تجلس أو تحرك يديها أو وهي تتحدث. كانت يمامة دائماً تتخيلها جالسة في عربة تجرها الخيول.. لأنّ كشاكشها كانت تتحرك وتتطاير حتى عندما لا تكون هناك في الجو نسمة هواء. كانت تنظر إليها وتتمنى أن تكون عروساً مثلها لأنها اعتقدت أن العروس لوحدها من يحق لها أن تملك كل هذه الأشكال من الثياب الحريرية الجميلة. كانت تضحك أحياناً وهي ترى يمامة واقفة تنظر لها بذهول فتضحك وتقول:

- لا أعرف أن أشتغل عندما ينظر إليّ أحد.

ثم تردف ضاحكة.

- حمداً لله أنّي لست لاعب كرة قدم.

فتتحرك من ضحكها بعض الكشاكش.

كان بيتها صامتاً دائماً.. صمتاً لم تجد يمامة مثله في باقي البيوت.. حتى عندما كانت الست هنوة تقف في المطبخ لتعدّ

الطعام، كان ذلك الصمت موجوداً لا يقطعه سوى صوت صنبور ماء يفتح، أو آنية طبخ ترفع من مكانها، أو قطعة لحم تقطع بالسكين. . اعتقدت يمامة في البداية أن ذلك الصمت الغريب في منزلها أملاه خلوه من أيّ جهاز يمكن أن يصدر ضجيجاً أو صوتاً غير أصوات حركتها هي . . لم يكن في بيتها هاتف يرنّ أو مكنسة كهربائية تهدر أو ماكنة خياطة تدوي أو غسالة تقضم أو قدر ضغط يئز. . كان في البيت صوتها هي فقط «غادية رائحة» ضَاحكة صائحة . . متنقلة من مكان إلى آخر بشكل متواصل يجعل الصمت عندما تتوقف، يبدو أكثر وضوحاً بدلاً من أن يبدده . . ثم توصلت يمامة إلى أن هذا الصمت، بعد أن غاب عن ذهنها طويلاً، يبدو صائحاً بهذا الشكل الصارخ لأنه لم يكن في البيت طفل. سألت أمها ذات يوم:

– لماذا. ليس للست هنوة طفل.

فقالت:

– يبدو أنها عاقر.

قالت يمامة:

– وما معنى عاقر؟

قالت الأم:

– أي لا تلد الأطفال.

فقالت يمامة:

– ألم يضع زوجها خاتماً في يدها عندما خطبها؟

قالت الأم :

- بلى .

قالت يمامة :

- إذن لماذا لا تلد الأطفال ...؟

قالت الأم وهي تضحك :

- وما علاقة الخاتم بالأطفال؟!

قالت يمامة :

- إنه هو الذي يصنع الأطفال ..

احتضنتها أمها وضحكت وقالت :

- لا .. ليس هو

قالت يمامة :

- ماذا إذن ؟

صمتت قليلاً ثم قالت بعد ذلك الصمت :

- الله هو الذي يصنع الأطفال .

بعد ذلك راحت يمامة تنظر إلى الخاتم الذهبي في يد الست هنوة وكأنه شيء ثقيل يكاد يسقط من يدها في أيّة لحظة .. أصبح وجوده في إصبعها صارخاً ولافتاً للنظر ..يبرق في كلّ حين أمام عينيها إذا ما مدّت يدها أو رفعتها أو انهمكت بها داخل رغوة الصابون لغسل الأواني أو الملابس المتسخة .. أصبح

يصدمها بوجوده ويجعلها تتساءل ما فائدته إذن إن لم يكن لولادة الأطفال؟ ثم كرهته واشمأزت منه بعد أن طغت بشاعته، بنظرها، على جمال ثياب الست هنوة الحريرية والتي كانت تتجدد باستمرار ثم وجدت نفسها تمتعض من الطريقة التي تلوي بها الست هنوة بوزها نحو اليمين أو نحو اليسار لتدع خيط الحفافة يصل إلى كل منابت الشعر حول فمها بينما أذناها مستسلمتان لأم شكرية، وهي تردد قصصاً غريبة عن ولادات كثيرة يجيء فيها الأطفال إلى العالم وهم مشوهون .. قالت لها مرة:

– جارتنا في الشواكة ولدت طفلاً ميتاً .. أعوذ بالله .. يقولون إنه يشبه الضفدعة وإنه بلا رأس ولا أصابع.

كانت كلماتها تخرج من فمها مكتومة بسبب من إطباق فمها على الخيط وأحياناً تتركه يتدلى قليلاً من شفتيها وهو مبلل لتمعن النظر في شعرة تراوغ خيطها فتحك باظفرها منبت تلك الشعرة قبل أن تنقض على وجه الست هنوة مرة أخرى .. ثم تعود بعد أن تعثر على الرأس المفقود للشعرة لتطبق بأسنانها على الخيط وتواصل حديثها المكتوم عن ولادات أخرى حدثت في الكرادة أو الصالحية أو أبي غريب ليس من بينها ولادة واحدة طبيعية لطفل جميل أو سليم أو معافى .. أم شكرية كانت تأتي إلى بيت الست هنوة بين خميس وخميس وعندما تعود يمامة مبكرة من المدرسة تفتعل الحجج لكي تهرع إلى منزلها وتصل إليه قبل أن تصل أم شكرية وتخرج من حقيبتها الصغيرة كبابة الخيوط، المرآة والملقط وقرصاً أبيض اللون تمسح به وجه الست هنوة

كله، قبل أن تضع الخيط في فمها وتبدأ غاراتها المتتالية عليه. «ولكن ليس كلّ الأطفال بلا أصابع» فكرت يمامة وهي تنظر إلى الست هنوة في فناء المنزل الخلفيّ لتنشر ملابس زوجها على حبل مشدود بين كتاتب النافذة وشجرة التوت المزروعة قرب السياج الخلفي للبيت. كانت يمامة تجلس على دكة قرب تنور الخبز تطالع في كتاب القراءة وتنتظرها لكي تنتهي من ملابسها وتراجع لها دروسها. سمعتها وهي تتذمر وتشكو لأن ياقات قمصان زوجها لا زالت غير نظيفة.. عندئذ .. رفعت يمامة عينيها عن الثياب، ونظرت إلى حبل الغسيل فانتبهت لأول مرة إلى أن هذا الحبل لا يشبه حبال الغسيل التي تراها في باقي البيوت، فهو خالٍ من ملابس الأطفال التي تضيق بها عادة باقي الحبال فتراها منشورة على الكراسي والمناصب الموضوعة تحت الشمس لكي تجف بسرعة إذا كان الوقت شتاء. كان حبل غسيلها قاسياً وفظاً بعيني يمامة في تلك اللحظة .. فسألتها دون قصد:

– خالة هنوة. لماذا لا يكون لديك أطفال؟

تطاير رذاذ بارد من قميص عصرته بقوة فمست برودته وجه يمامة ولم تفهم مما قالته شيئاً لأنها قالته وهي تضحك بعصبية بدا فيها من السخرية الكثير .. ولم تعرف حينها لماذا يضحك الكبار عادة عندما يأتي حديث مثل هذا على ألسنة الصغار. عندئذ ضجرت يمامة أكثر وضاقت ذرعاً بخاتمها الذهبي العاطل عن العمل فتمنت أن يضيع من يدها ولا تعثر عليه أبداً .. تلك أمنية راودتها بشدّة في طفولتها، ولكنها لم تتحقق إلا قبل سنوات عندما أيقظتها خالتها بعد ربع قرن من النوم وقالت لها:

– الست هنوة .. تريدك.

أصابها شيء من الانزعاج لأنها أصبحت تتحاشى نظرات زوج الست هنوة إليها وغرابة تصرفاته مع النساء. قالت خالتها:

– هل آتي معك؟

قالت يمامة:

– كلا . سأعود سريعاً.

فقالت الخالة:

– يا فتاح يا رزاق .. ماذا تريد هذه المسكينة في هذه الساعة.

كانت في فراشها .. نصف مشلولة .. تهلل وجهها عندما رأت يمامة وقالت تعاتبها بلا زعل:

– لماذا لم تعودي تزورينني يا يمامة؟

ضحكت يمامة بلا صوت ولم تجبها فقالت:

– أمك رحمها الله كانت كالأخت بالنسبة لي. وأنت ابنتي.

قالت يمامة:

– حقك يا خالة هنوة والله .. أنا مقصرة .. هل تحتاجين شيئاً؟

قالت هنوة وهي ترفع غطاء السرير من فوقها وتنظر تحته وكأنها تبحث عن شيء ما:

– ضاع خاتم زواجي يا يمامة.

فزعت يمامة في بادئ الأمر وانتفض قلبها بقوة إذ تذكرت تلك الأمنية الغريبة التي تمنتها ذات يوم بعيد من طفولتها عندما رأت الخاتم الصارخ يتلامع بصلف بين قمصان زوجها الكثيرة جداً على حبل الغسيل . . وبدا من نبرة صوتها المعاتبة أنها تؤنب يمامة على ضياعه . .

ولكنها قالت لها بعد قليل:

– هلا ساعدتني في العثور عليه؟

قالت لها يمامة على الفور:

– هل هو خاتم زواجك نفسه؟

قالت هنوة:

– نعم

ثم أردفت:

– لم أبعه أو أغيره منذ أن تزوجت.

كان فمها منحرفاً عن مكانه قليلاً . . وعندما تتحدث تتحرك –بفعل أنفاسها– خيوط الحرير التي تتدلى من لفعتها . . وظلت تلك الخيوط تتحرك لفترة طويلة وهي ترفع كيس البول من مكانه لتفسح ليمامة طريقاً تبحث من خلاله بين الشراشف والأغطية عن خاتم زواجها الضائع. . نفضت يمامة الشراشف والأغطية ثم انحنت وقالت من تحت السرير:

– أمتأكدة أنت يا خالة أنك لم تخلعيه وتحفظينه في مكان ما . .؟

قالت هنوة:

ـ لا يمه لا .

فقالت يمامة لنفسها: «الخاتم لم يضع إنما انتزعه زوجها».

ثم .. تك.. وانفتح رأسها المائل تحت السرير بوابة «دكانه العريضة» وخرجت منه أكياس الطحين التي يجمعها من بطاقات تموين وهمية ونقص غير محسوس في كلّ حصة يطفف فيها بالميزان .. ثم تك.. وانغلقت تلك البوابة السوداء التي تآكلها الصدأ وخرج منها تحسين .. عيناه جاحظتان وكأنهما عينا نعامة وشعره فاحم أزلي السواد لم يغزه في يوم من الأيام الشيب الجليل الذي يغزو رؤوس باقي الرجال.

مددتها يمامة ثانية على السرير والشيخوخة تكرس كلّ شيء .. يكتمل العبوس أو يكتمل المرح ..يكتمل التواضع أو يكتمل الغرور.. تكتمل القسوة أو يكتمل الضعف، يصبح الإنسان مسؤولاً عن شكل قسمات وجهه في آواخر أيامه .. لأن هذا الاكتمال الذي أصبح طابعاً مميزاً للوجه كان في الماضي أسلوباً للحياة .. الشيخوخة أيضاً تكرس تضاريس الوجه وتحدها بقوة .. يتقعر تجويف العينين فتسحبان إلى الخلف ويتراخى الفكان فيتقدمان إلى الأمام أو يتهدلان إلى أسفل وينكمش الجلد على نفسه ويذبل ويفقد الروح والرونق والرواء .. وكان ذلك كلّه يبدو في ضوء الشمعة المشتعلة قرب السرير. أشدّ ظلاماً مما هو عليه في حقيقته. قالت هنوة وكأنها تحرس أفكار يمامة وتتابعها فكرة فكرة.

- قضيت أياماً من حياتي أتجول بين العطارين أبحث عن أعشاب تعيد لي شبابي ونضارتي .. مزجت الرواند مع حب الاهليبج لكي أتخلص من بدانتي، واكتحلت بالأثمد المخلوط بالعفص واللوز المحروق لكي لا تتساقط رموشي، وخلطت الحلبة مع الحناء والقرنفل لأزهّر لون شعري، ومزجت البابونج مع الكركم وقشر الرمان لكي لا يتساقط، وفركت لثتي بلحاء شجر الجوز لكي تثبت أسناني في مكانها ودهنت وجهي بعصير الملفوف وزيت الزيتون واللبن الرائب وماء الورد وشراب الليمون ورحيق العسل الصافي حتى تعود إليه نضارته ويشرق مرة أخرى بالنور .. ولكن آهه ..لا فائدة ..حلت اللحظة التي لا يصلح فيها العطار ما أفسد الدهر.

قالت لها يمامة:

- هل ثمة لحظة محددة للشيخوخة يا خالة؟

قالت هنوة:

- نعم هناك مثل هذه اللحظة.

ثم رفعت رأسها ووجهها باتجاه يمامة ووضعت إصبعها النحيل على جبهتها وقالت:

- هذا هو المكان الأول للشيخوخة . أما مكانها الثاني ففي المرآة.

ثم عادت واستلقت على وسادتها وقالت:

- ولكن هذا كلّه ليس مؤلماً يا ابنتي .. المؤلم هو النوم .. إنه

يأتي ببطء وعندما يأتي النوم ببطء يظل طنين الأفكار يتردد صاخباً مثل حفلة تعذيب الرأس.

قالت لها يمامة:

– سأظل بقربك حتى تنامي.

قالت هنوة:

– قد غابت الشمس وتحسين لم يعد بعد.

قالت يمامة:

– لا زلنا في الصباح يا خالة .. ولكني أشعلت لك الشمعة لأن الكهرباء مقطوعة.

قالت هنوة:

– أين عمك تحسين إذاً..؟

قالت يمامة:

إنه في الدكان .. وقد أرسل في طلبي قبل أن يخرج.

رفعت هنوة رأسها قليلاً وأزاحت عن فمها شعرة بيضاء مالت عن سالفها الأيسر والتصقت بشفتيها ثم قالت:

– الله يرحم أمك .. ماتت قبل أن تراك متزوجة .. وأنا أيضاً سأموت قبل أن أراك عروساً لماذا لم تتزوجي يا ابنتي وقد تقدم لك خطاب كثيرون.

ضحكت يمامة وقالت:

– لا أدري يا خالة . .ربما هي نبوءتك التي منعتني من الزواج؟

بدا على وجه هنوة الاهتمام وتجعد الجلد ما بين حاجبيها وكأنها تحاول تذكر شيء ما دون أن تفلح في ذلك. قالت؟

– نبوءتي؟

قالت لها يمامة:

– ألا تذكرين أيام فناجين القهوة يا خالة؟ . . كنت ما أزال طالبة في الكلية عندما قرأت لي فنجاني ذات يوم وقلت لي إنك ستتزوجين من رجل مجنون.

قدحت عينا هنوة قليلاً، ثم بدا عليها أنها تذكرت ذلك اليوم، ثم ضحكت وتجعد وجهها بنحو بهيج، وبدا فمها المنحرف الخالي من الأسنان يعبر عن الضحك بشكل أفضل مما هو عليه متسلحاً بطقم الأسنان. . ثم قالت وضحكتها تتلاشى.

– طبعاً أتذكر . . كم حيرني شكل ذلك الرجل الذي ظهر لك في الفنجان وكم أذكره بقوة لحدّ الآن . .كانت رأسه مختلة . . فيها خطأ ما ولكنه طويل جداً . . وسيم للغاية . . أليس كذلك يا يمامة؟!

قالت لها:

– نعم

– وقلت لي إنه قريب أيضاً ويرتدي قبعة؟

اتسعت عينا هنوة قليلاً ثم قالت باهتمام:

– قبعة؟

قالت يمامة:

- نعم يا خالة قبعة.

قالت هنوة وقد عاد إلى عينيها شيء من البريق:

- لا أذكر هذه أبداً .. ولكني أذكر أني قلت لك أن عقارب الساعة سوف تتوقف عندما تلتقين به ثم صمتت قليلاً وانسحبت ونظرت إلى يمامة بمرح:

- ولم تعثري على ذلك المجنون بعد؟

ضحكتا سوية ثم قالت يمامة:

- كلا .. لم أعثر بعد ..

- غريبة والبلد مليئة بالمجانين.

قالت يمامة:

- ليس فيهم من تقدم للزواج مني على أية حال.

تنهدت هنوة بعمق ثم قالت:

- هل تأخرت؟ . لقد ضايقتك بالبقاء معي.

قالت يمامة:

- على العكس ..أحاديثك جميلة وتسليني يا خالة.

قالت هنوة وهي تعيد رأسها على وسادة موضوعة خلفها.

- أتذكر حكمة قرأتها ذات يوم في كتاب ..تقول إن الحجارة التي يرميها الأطفال على الخنفساء لكي يلعبوا، هي بالنسبة للخنفساء قضية حياة أو موت.

قالت يمامة:

– ولكنك لست خنفساء يا خالة .. أنت غزال شارد لن تنال منه الحجارة ولا السهام.

قالت هنوة:

– طالت فترة انقطاع الكهرباء .. ولكن أين يمكن أن يكون قد ذهب خاتم زواجي؟

قالت يمامة:

– سأجيء في يوم آخر تكون فيه الكهرباء موجودة وأبحث لك عنه جيداً.

قالت هنوة:

– نعم .. يجب أن أعثر عليه ..

قالت يمامة:

– إن شاء الله.

قالت هنوة:

– حسن .. أعتقد أني نعست وأريد أن أنام..

قالت لها يمامة وهي تغطيها:

– هل آخذ الشمعة من هنا؟

قالت هنوة وقد اختفى كلّ تعبير عن وجهها:

– نعم.

في عينيها بقايا كحل .. وعلى منضدة الزينة التي كانت فيما مضى، أصابع أحمر الشفاه تصطف عليها كعربات دولاب الهواء.. طبقة كثيفة من الغبار جعلت سطح المنضدة يبدو كأنه أرض يباب وملقط الشعر الوحيد الموضوع فوقها كأنه بقايا حيوان افترسته الجوارح منذ وقت طويل.

حملت يمامة الشمعة ومضت بها إلى غرفة المعيشة .. وعندما أصبحت هناك كان الصمت الذي يخيم على أرجاء البيت خالياً من تلك الروائح اللذيذة التي كانت تداهمها كلما دخلت إلى ذلك المكان وهي صغيرة. في مثل هذا المكان من كلّ شتاء، تكون الخالة هنوة جالسة في مقعدها المفرد ذاك عند الركن وهي تحتضن المدفأة النفطية بين ساقيها، فتتصاعد إلى السقف روائح الصابون مع بخار خفيف من قمصان زوجها التي تكمل تجفيفها على ثوب غطاء المدفأة بعد جمعها من على حبل الغسيل .. في مثل هذا الشتاء ومن هذا المكان تكون قد فاحت رائحة رز يسلق أو بصل يتحمص أو شاي يخدر أو شلغم ناضج يتصاعد منه البخار طالما هنوة تنقله من الماء الساخن إلى الطبق وتقدمه إلى يمامة .. فتشعر وهي تستنشقه بالخوف بدلاً من السعادة .. لشدة ما كانت رائحته لذيذة ومثيرة وتبعث على الحزن.

الآن عرفت يمامة لماذا كانت تشعر بالخوف من ذلك المذاق الهائل للأشياء، مذاق قصير العمر وزائل وسرعان ما سيخلي محله لهذا الحاضر البارد الأصم .. الفاغم بمزيج من رائحة البخور

والديتول وأنواع الأدوية والأقراص والكبسولات .. في بيت أصبح بلا نار ولا دخان ولا طعام ولا نظافة، يغطي الغبار الكثيف كل جزء من أثاثه وأخشابه وجدرانه بشكل يكفي للاعتقاد بأن هذا البيت يجري تجربة دفن أخيرة لشخص يموت قبل ذهابه الفعلي للمقبرة.

# روزنامة الأحلام

## -1-

قال لها حسن الخطاط وهو يسلمها اللوحة:

- لوحتك غريبة هذه المرة يا يمامة .. أشعر أنها لاتنتمي إليك.

قالت له:

- كيف ؟

قال :

- إنها تصويرية .. فيها رؤساء وملوك ومطربون .. هل هي صورة تذكارية لأبناء عصر واحد؟

قالت له:

- إنها قصة حب فاشلة.

قال:

- لماذا إذن وضعت عبد الكريم قاسم واقفاً بين اثنين جالسين هما عبد الحليم حافظ وعبد السلام النابلسي؟

قالت:

- لو كنت وضعت جمال عبد الناصر بينهما لكانت اللوحة تصويرية كما تقول، أما وقد وضعت عبد الكريم قاسم فاللوحة إذن تنتمي إلى أسلوبي الخاص.

قال:

- على أية حال، إنها لوحة تقول أشياء كثيرة .. وأتوقع لها الفوز.

قالت له:

- رأيك يهمني يا حسن .. وقد كنا نتوقع لك في الكلية أن تكون ناقداً تشكيلياً لولا أن أخذتك مهنة الخط منّا.

أحست يمامة وهي تتكلم أن أحداً ما يجلس في زاوية مظلمة من الدكان ويراقبها، وعندما التفتت إليه وجدت مثنى، ولم تكن قد عرفت اسمه بعد، يجلس على طاولة عالية وينظر إليها باستغراق شديد:

انتبه حسن لذلك فقال يعرفه إليها:

- آسف نسيت أن أعرفكما ببعض.

ثم أشار بيده إلى يمامة وقال:

- يمامة .. زميلتي في الكلية وجارتي في هذا الشارع منذ أن كنّا أطفالاً في القماط.

ضحكا سوية بلا صوت .. ثم أرخى حسن يده المؤشرة نحو يمامة وأشار بيده الأخرى نحو مثنى.

-مثنى .. صديقي من أيام العسكرية .. وجارنا الجديد بواسطتي .. لأنّي أنا الذي أشرت على أهله بشراء البيت الذي..

قطع حسن كلامه فجأة ثم التفت إلى يمامة وقال:

- آه . .إنه البيت الذي يجاوركم تماماً يا يمامة . . البيتُ الذي ظل فارغاً لعدة سنوات بعد أن تركه صاحبه وهاجر.

ثم نظر إليهما سعيداً وأضاف:

- يمامة رسامة مشهورة.

قال لها مثنى:

- أهلاً وسهلاً.

ثم صمت وغرق في الظلام . .وكان وجهه يبدو أقل توردا ممّا كان عليه في تلك الظهيرة اللاهبة عندما ناداها إلى الصعود والجلوس بقربه في أعقاب صيحة صافرة وهمية . قال حسن:

- ولكن هذا الإطار أتعبني كثيراً . . يبدو قديماً.

قالت له:

- هل تصدق . . أن الإطار كان موجوداً عندي في البداية فطابقت مقاييس اللوحة عليه . . وليس العكس.

ضحك حسن وقال:

- طبعاً . . ولكن ماذا أسميت اللوحة.

أصبح الكلام يزداد صعوبة على يمامة وهي تشعر بنظرات مثنى مصوّبة نحوها . .ثم بدا وهو ينظر إليها وإلى حسن باعتناء وثبات، وكأنه فلاح وجد نفسه فجأة في قاعة مضيئة لعرض الأزياء. قالت يمامة لحسن وقد احمرّ وجهها:

– روزنامة أحلام.

قال حسن وهو ينظر إلى اللوحة التي بينهما ملياً:

– هذه روزنامة كوابيس وليست روزنامة أحلام.

يبدو أن الرجل الجالس في الظلام قد لاحظ ارتباك يمامة وتحفظها في الكلام .. فنهض من مكانه واستأذن بالذهاب فأذن حسن بذلك، وطلب منه شيئاً يجلبه معه عندما يعود، فهمت يمامة أنه ذاهب للسوق.. قال حسن وقد تفرغ لها تماماً:

– إنها فعلاً روزنامة كوابيس.

قالت له:

– ألم أقل لك إنك ناقد تشكيليّ قبل أن تكون خطاطاً.

قال حسن:

– بجد قد أثارتني تلك اللوحة .. لأول مرة منذ فترة طويلة أجد نفسي راغباً في تدوين بعض الأفكار والملاحظات .. تعرفين أني لم أعد مهتماً بذلك .. أقصد بتدوين أفكاري أو التوقف عندها طويلاً .. ولكن هذه المرة .. سأكتبها في حالة واحدة فقط.

قالت يمامة وقد تملكتها الدهشة:

– ماهي؟

قال حسن:

– أن تفوز اللوحة بالجائزة الأولى.

قالت يمامة:

- كم سيسعدني هذا يا حسن.

قال ضاحكاً:

- طبعاً سيسعدك أن تفوز لوحتك بالجائزة الأولى.

قالت:

- لا .. لا .. لا أقصد ذلك والله سيسعدني أن تكون هي السبب في الفوز بناقد تشكيليّ مثلك.

قال وقد اختفت ضحكته تماماً:

- تعلمين أن هذه الأشياء لا تهمني إطلاقاً. ولكني إن فعلت ذلك فسأفعله إكراماً لك.

قالت له:

- وهذا أيضاً سيسعدني جداً .. هل هذا وعد؟

قال جازماً:

- إنه وعد.

قالت له:

- من كان يصدق يا حسن؟ .. سارح مجنون مثلك ينتظم في مهنة مستقرة ويتزوج ويعيش بهذه الطريقة الهادئة المرتبة!

قال ضاحكاً وكأنه يستسلم لأمر ما حدث:

- الفضل يعود لك .. رفضتني فعقلت.

قالت له بسرعة:

- الفضل يعود لسناء .. هي التي غيرتك.

قال بشيء من الحياد:

- ربما .. يبدو كذلك.

قالت له تريد تغيير الموضوع:

- والآن هل لديك ورق ألفّ به اللوحة.

قال:

- أعتقد.

أخرج من تحت البنك الذي يعمل عليه اسطوانة ورق أسمر كبيرة، وراح يلفّ اللوحة بعناية بالغة، بعد أن أزاح أقلاماً ومحابر ومسطرات كثيرة من أمامه. وكان يفعل ذلك صامتاً مستغرقاً مع نفسه طيلة الوقت بينما كانت يمامة تنظر إلى صورة التخرج الجماعية التي يضعها حسن على جدار جانبي من دكانه وتعيد مع نفسها، كما تفعل في كلّ مرة تنظر بها إلى الصورة، دبكة شيخاني جماعية رقصها طلاب مسيحيون من أهل الموصل فانتشر حولهم كلّ طلاب وطالبات الأكاديمية مصفقين وعيونهم مصوّبة إلى أرجل الدابكين بذهول. أحد الراقصين ظلّ طول الطريق إلى أم الخنازير يغني «قولي أحبك» لديمس روسيس ويرد عليه الآخرون ضاحكين مقلدين آهات لازمة تلك الأغنية التي تشبه عواء الذئاب .. هاجوا وماجوا وضربوا الأرض بأرجلهم فخلّدتهم عشرات الصور مستبشرين عابثين ووجوههم خلو من أي عناء،

وكأنهم أبطال العالم في القلوب السعيدة، بينما خطواتهم على الأرض تمضي إلى المقادير المكتوبة غير محتاطة من أي مصير.

كانت الصورة معلقة خلف المكان المظلم الذي غادره مثنى قبل قليل .. نبّه ظلامه يمامة إلى أمر ما، فقالت لحسن:

– هل الكهرباء مقطوعة؟

قال:

– كلا .. ولكني نسيت إشعال المصابيح.

ثم أردف:

– هل يبدو المحل مظلماً؟

قالت :

– بعض الشيء

ثم طرقت على اللوح الخشبي بيدها وقالت:

– أمسك الخشب .. يبدو أن عينيك لا تحتاجان كثيراً من الضوء وأنت تعمل.

ضحك حسن وقال:

– لا أعتقد ذلك، ولكن الظلام ليس ماءً بارداً يسقط علينا فجأة فنحسّ به .. إنه ظلام صامت يأتي بالتدريج فنعتاد عليه ونألفه ولا نحتاط له.

قالت له يمامة ضاحكة:

– الله .. الله.

قال جاداً:

- أليس هو كذلك فعلاً؟

قالت له:

- هذه هي حكمة الطبيعة العاقلة.

قال وهو ينتهي من لفّ اللوحة:

- حمداً لله أنها ليست فنانة أو مجنونة.. لكانت منحت ضوءها يوماً وحجبته أياماً.

قالت له:

- من يدري؟ لعل ذلك سيكون أجمل؟

قال:

- ليس هناك أجمل ولا أكمل من أن تكون للأشياء أسماء ومواقيت معروفة.

قالت له بعجب:

- مثل الروزنامة؟

قال راضخاً وهو يضحك:

- نعم مثل الروزنامة.

قالت له:

- لقد أصبحت واقعياً أكثر من اللازم يا حسن.

قال وهو يضحك:

- الله يبلو ويدبّر.

ثم سلّمها اللوحة وعاد ينظم بيديه اللوح الذي أمامه ويعيد أدواته وأقلامه وقراطيسه إلى مكانها السابق. غادرته يمامة وهي تقبض على لوحتها بصعوبة، وعندما مرت وهي في طرف الطريق إلى الشارع العام، بالبيت الذي كان شاغراً منذ سنوات، وجدت سيارة نقل صغيرة تقف ببابه وهي تحمل ألواحاً من خشب رخيص مصفوفة فوق بعضها البعض. رأت سائقها يسحب لوحة من تلك الألواح ويضعها فوق الرصيف، ثم ينظر إلى باب البيت وكأنه ينتظر خروج أحد ما لمساعدته. الفترة التي مضت على انصراف مثنى من الدكان كانت طويلة، ومع ذلك فقد وجدته لا يزال واقفاً على ضفة الشارع العام وهو ينظر إلى الأرض .. وجدت نفسها تفكر بالشبه الكبير بينه وبين حازم مرة أخرى وبعد ثوان قليلة من وقوفها رأته يوقف سيارة أجرة ويتحدث مع سائقها ثم يناديها بكلمات غير مفهومة. اقترب منها وقال :

- أين تذهبين؟

قالت له:

- إلى شارع حيفا.

قال:

- تفضلي إذن .. أنت على طريقي.

لحظتئذ فقط حدست يمامة لماذا وضع كفّه ليحمي وجهها من الشمس عندما انهمكت بإخراج نقودها من الحقيبة في تلك الظهيرة .. إنه يتصرف بحسّ عفويّ وليس في رأسه ثمة خطوط للخطر وأخرى للأمان .

سألها بعد أن تحركت السيارة :

– هل تذهبين إلى السوق ؟

بدأ سؤاله مازحاً، فضحكت يمامة .. ولكنّه قال بعد ذلك :

– تقضي النساء وقتاً طويلاً من حياتهن في الأسواق .

ضحكت يمامة مرة أخرى وقالت له :

– لا .. لست ذاهبة إلى السوق .

أخذ اللوحة من حضنها وعدلها في حضنه دون أن يستأذنها في ذلك، وظلّ طوال الوقت صامتاً بشكل بدا ليمامة مقصوداً وفيه غرابة . فلم تقطع صمته بالمقابل سوى بتحية شكر مقتضبة قالتها له قبل أن تنزل وهي تأخذ لوحتها منه دون أن تنظر إليه .



لم يكن الليل قد حل بعد في الزقاق عندما عادت يمامة .. ولكن الظلمة كانت قد زحفت بما فيه الكفاية لجعل صاحب بسطة السكائر يطوي صفحة الكلمات المتقاطعة، ويضع الجريدة في حضنه منتظراً عودة اشتعال المصابيح الكهربائية من جديد، تساءلت يمامة إن كان أبو جعفر المنصور لا زال ينتظر الوصول معه إلى الكلمة الضائعة بعد أن كان قد سألها في الصباح عن اسم الخليفة العباسي الذي بنى مدينة بغداد، ألقت عليه التحية .. وكانت أشجار الطريق الترابي الذي يفصل بين الشارع العام والزقاق تضج بزقزقة آلاف العصافير التي طارت إلى تلك الأشجار بعد غياب الشمس، فبدا اجتماعها في هذه الحفلة اليومية الصاخبة غير مقصود من أجل أن يستمع عصفور إلى حديث عصفور آخر، ولكن لكي يعبّر كلّ واحد منها عن فرحته بالعودة إلى البيت وذلك بإطلاق تلك الزقزقة الطفولية التي تبدو، شأنها شأن كل تصرفات الأطفال، خرقاء وفاقعة ومثيرة للضحك. التقاها عمر، وهو أوقح الأطفال في الزقاق، صائحاً:

– خالة يمامة .. الكهرباء مقطوعة.

قالت له متظاهرة بعدم ملاحظتها لذلك:

– حقاً؟

قال:

– نعم .. ألا ترين مصابيح الشارع مطفأة.

الزقاق كان ضاجاً بالأطفال .. وكاظم البغدادي، أبو عمر، لوحده من الكبار يقف عند باب بيته بخرطوم مياه بين يديه، وذيل سروال بيجامته المبتل مكفوف إلى أعلى ..

قالت له بصوت حاد:

– بل إنها مشتعلة.

توقف ونظر إلى أعلى، ثم أنزل رأسه على الفور، وقال بصوته الأبحّ القوي:

– لا .. لا .. إنها مطفأة.

قالت له وهي تواصل سيرها وهو يتقدمها مثل قط:

– ما بك يا عمر؟ هل فقدت نظرك؟ .. إنها مشتعلة.

أخذ يتفاخر ويضحك بشكل أخرق، وقال:

– حسناً لو كانت مشتعلة ..ماذا أمسك بيدي؟

لم يكن الضوء الشحيح المتبقي من الشمس الغاربة يتيح لها معرفة ذلك، ولكن معرفتها الجيدة بجدول أعماله اليومية جعلتها تقول:

– مصيادة.

توقف مرة أخرى وضحك قائلاً:

– لم تريها .. لقد قلت ذلك من عندك .. أليس كذلك؟

قالت له يمامة وقد اقتربا من الوصول إلى البيت:

- اسألني سؤالاً آخر:

نظر عمر إلى أعلى مرة أخرى ثم التفت إلى أصحابه يستنجد بهم وقال:

- يابه؟ مو الكهرباء مقطوعة؟

فعل ذلك وكأنه يستحلفهم، فقالت له يمامة ضاحكة قبل أن تدخل البيت:

- ها .. غلبتك يا عمر.

أخذ يراوح بقدميه الحافيتين على الأرض وكأنه دجاجة تبحث عن قوتها بين الأوساخ والتراب، ثم راح يرجع إلى الخلف وكأنه يدعوها إلى نزال، ثم قال بتحدٍ وعصبية مضحكين:

- ما صدقتك من الأول .. ومحمد ما صدقتك.

عندما يقسم عمر بالقرآن أو النبي فإنه يعني أنه يريد تأكيد كلامه أكثر مما لو كان سيقسم بالله .. تركته يمامة وهي تقول متأكدة:

- بل غلبتك يا عمر.

حملت خالتها الشمعدان الصغير وعادت تتقدمها إلى غرفة المعيشة، فبدت الغرفة أكثر ظلاماً مما هي عليه في الحقيقة. وبعد قليل اعتادت عيناها ذلك الظلام، فعادت إلى الظهور تفاصيل الأثاث والنواعم والنباتات الظليّة الموجودة في الغرفة. قالت الخالة:

- هذا القطع .. يبدو أنه ليس وفق الجدول.

قالت لها يمامة:

– لماذا؟

قالت الخالة:

– لأنه حدث في السابعة والنصف تقريباً . .لو كان قطعاً مبرمجاً لحدث في السابعة بالضبط.

قالت يمامة:

– ربما منحونا نصف ساعة رحمة بنا من هذا الحرّ الشديد.

قالت الخالة:

– وهل سيعتبرون هذا القطع نهارياً أم ليلياً؟

قالت يمامة:

– ليلياً على ما أظن.

فقالت الخالة:

– إذن ستعود الكهرباء في التاسعة.

قبل التاسعة بقليل، كان ظلام الليل الصيفي قد اكتمل وأصبح كالحاً وشديد السواد . . رأت يمامة جيمس دين يطل برأسه في الظلام، ثم تسلل شيء زاحف من رأسها إلى رجليها مّثل عظاءة برصاء فرّت من ضوء مفاجئ، ثم لبدت ملطوشة على الحائط وأصابعها الأربعة تعمل على إدامة هذا الالتصاق كوسائد

منفوخة. كانت تجلس مع هنوة في غرفة المعيشة تشاهد وإياها فيلم السهرة في التلفزيون وقد حدث ذلك قبل سنوات عندما كانت تستبقيها معها لحين عودة زوجها متأخراً من العمل، كان التلفزيون يعرض فيلماً من أفلام الخمسينات اسمه «تمرد بلا قضية». وعندما ظهر البطل بهيأته الصغيرة ووجهه الذاهل الحزين، قالت الخالة هنوة:

– هذا جيمس دين.

– تعرفين اسمه يا خالة.

قالت :

– يووووه .. أنا أحفظ أسماء كل الممثلين الأجانب عن ظهر قلب.

قالت لها يمامة:

– عجباً .. من أين لك هذه المعلومات؟

قالت وهي تضحك:

– عندما كنت طالبة كانت لنا جارة أرمنية تعشق الأفلام الأجنبية .. وكلما ظهر فيلم جديد في دور السينما هرعت للذهاب إليه في الدور الصباحي ليوم الجمعة .. ولأنها لا تجيد القراءة فقد كانت تصحبني معها في كلّ مرة لكي أقرأ لها ترجمة الفيلم .. كان ذلك يمتعني في البداية ويسعدني جداً. وأصبحت أنتظر يوم الجمعة من كلّ أسبوع بنفاد صبر، وأنهض من الصباح الباكر لأنهي كلّ ما تطلبه أمي مني من أعمال البيت، فيروق

مـزاجـهـا وتـسـمـح لي بعـد ذلك بمرافـقـة جـارتنا الأرمنيـة إلى السـينمـا. . مـاذا أقـول لك يا يمامـة؟ . . رأيت أفـلامـاً بالعـشـرات لكلارك كيبل وجون وين وفيفيان لي وأودري هيبورن وهنري فونـدا وبرت لانكسـتـر وسـوزان هيـوارت وصـوفـيـا لورين. لكني عندما أصبحت في سن المراهقة أصبح ذلك يسبب لي الإحراج، خصوصاً وأن سمع الست غزالة وهذا كان اسمها، أخذ يضعف فكان يحرجني أن أقرأ لها الترجمة بصوت عالٍ . . ويخجلني أيضاً أن أسمع تعليقات ساخرة من الشباب والمراهقين بسبب ذلك فتوقفت بعد ذلك عن الذهاب.

قالت لها يمامة:

– في قمقمك يا خالة الكثير من العفاريت، ولن أتفاجأ بأيّ شيء تخبريني به عن حياتك .

قالت وهي تضحك:

– أتعلمين يا يمامة؟ . . إن كل ما تمنيته في حياتي فعلته . . سافرت وضحكت ولهوت وقرأت ولبست وأكلت . . وعمك تحسين كان كالخاتم في إصبعي . . وما من شيء تمنيته إلا وتحقق، ولكن ليس هناك من لا توجد في قلبه غصة أو . . في حياته أسرار.

دخل زوجها إلى البيت وهو يحمل بيده مفتاح دكانه الذي يقضي فيه أغلب الوقت . . كان جيمس دين لا يزال حائراً ينظر إلى فتاة جميلة بلا مبالاة أجمل . .ومن فوره ذهب ليستبدل القناة

بأخرى دون أن يستأذن أحداً في ذلك .. كان الفيلم على القناة الأخرى عربياً بطلاه فريد الأطرش وسامية جمال.

قال وهو يعدو إلى الأريكة ليجلس عليها:

– أكره الأفلام الأجنبية.

بأريحيتها التي تصيب الآخرين بالعدوى.. قالت الخالة هنوة:

– سأنهض لأعدّ ...

وقبل أن تنهي جملتها .. انقطعت الكهرباء .. ولم يكن يحدث ذلك في تلك الأيام، إلا بشكل متباعد ونادر .. فتوقفت الخالة هنوة في مكانها وطلبت من زوجها عود ثقاب .. ولكنّه بعد أن مدّ يده إلى جيبه وأعطى زوجته عود الثقاب .. انتظر هنيهات .. وعلا من صدره صوت تنفس مسموع .. ثم مضت هنوة .. وحطّت يده على رجلي يمامة ولاذ بها بسرعة عضاءة برصاء تحت التنورة .. ارتعبت وانتفضت واقفة .. تبعثرت نظراتها في أكثر من مكان .. ثم ارتدّت إلى حيث كانت تقف هنوة في الظلام قبل قليل .. صوت مرتعب خرج من فمها كالشهاب ليشعل صمت الغرفة بالشرّ كلّه. هنوة قد حدست فيما بعد، على ما يبدو، ذلك الشرّ الكامن في بيتها لأنّها منذ ذلك الحين لم تعد تستغرب اعتذارات يمامة المتكررة عن الذهاب إلى بيتها أو اضطرارها إلى الخروج منه على عجلٍ عندما يأتي زوجها فجأة إلى البيت أو يكون موجوداً أصلاً فيه.

عبرت التاسعة والكهرباء لم تعد إلى الاشتعال .. كانت يمامة لا تزال في ثياب الخروج ومروحة الخوص تراوح بين يديها ..

سمعت صوت طرقات على الباب فنهضت وهي تحمل شمعة مشتعلة موضوعة في طبق فخاري صغير .. وعندما فتحت الباب وجدت مثنى يقف بقربه. قال بعد أن ألقى التحية:

– جئت أطلب علبة كبريت.

قالت خالتها من الداخل:

– من؟

قالت يمامة:

– جارنا ..جاء يطلب علبة كبريت.

قالت الخالة:

– كان آخر عود ذلك الذي أشعلت به الشموع .. أعطه شمعة مشتعلة بدلاً منه.

قالت له يمامة:

– أتريد شمعة مشتعلة؟

قال:

– لا .. شكراً سأجيء بواحدة من عندنا.

ثم ذهب على عجل ..وتركها واقفة في الظلام. قالت خالتها:

– ها .. لماذا لا تدخلين؟

قالت يمامة:

– إني أنتظره .. سيعود بعد قليل.

بقيت الخالة تقف على مقربة . .ولكن فترة انتظارها طالت لعدة دقائق. دخلت إلى البيت مرة أخرى وتركت الباب الداخلي موارباً . مرق «عمر» على دراجته وعاد أكثر من مرة وبدا لا يدري كيف يبدد الوقت في ذلك الظلام الطويل وكانت يمامة على وشك أن تغلق باب البيت الخارجي وتعود إلى الداخل، عندما سمعت مثنى يناديها من خلف السياج. اقتربت منه أكثر لتتبين موقعه في ضوء الشمعة المشتعلة، ولما عثرت عليه وجدته متشلبها على حافة السياج متشبثاً به وكأنه يكاد يسقط في أيّة لحظة.

قال:

- لم أستطع فتح الباب .. أكرتها غير مضبوطة على ما يبدو.

رفعت يمامة يدها بالشمعة إليه فمد شمعته ووضع فتيلها فوق النار.. سحبها بعد لحظة فوجدها غير مشتعلة. قالت له يمامة:

- يبدو أن هذه الشمعة رديئة الاشتعال..

عاد ووضع فتيلها مرة أخرى في النار واستبقاه هناك لفترة أطول، فقال أثناء ذلك:

- لوحتك بدت لي جميلة.

قالت يمامة:

- وهل تفهم في الرسم؟

قال :

- أترسمين لمن يفهمون في الرسم؟

فقالت له :

- طبعاً.

ضحك وهو يسحب الشمعة مرة أخرى ليجدها غير مشتعلة.

قالت له يمامة:

– من أين لك هذا الشمع الرديء؟

قال بصوت خفيض:

إنه من ولايتكم.

سحبها مرة أخرى، فوجدها غير مشتعلة، فقال ضاحكاً:

– أصدق أم كذب؟

ثم أعادها إلى النار وقال:

– ولكنها شمعة ذكية على أية حال. أين تعملين؟

كان يتحدث مع يمامة بصوت هامس وبطريقة بدت أنه سيتآمر معها بعد قليل للسطو على أحد ما أو بيت مما يجاورهما من بيوت. قالت له:

– كنت أعمل في التعليم .. ثم استقلت .. والآن متفرغة للرسم فقط وأشارك أحياناً في معارض.

قال وشمعته لا تزال في نار شمعة يمامة:

– كيف تعيشين إذن؟

قالت:

– أبيع لوحاتي.

قال:

– ومن يشتريها؟

قالت :

ـ الذين لا يفهمون في الرسم.

ضحك بصوت مجلجل وجميل، ثم قال:

ـ هذه والله مهنة حلوة .. تضرب عصفورين بحجر .. فكر ومال.

قالت له وهي تعدل رقبتها باتجاه الأرض:

ـ ليس دائماً ..

قال:

ـ بل دائماً .. لأنكم إن لم تربحوا الفلوس .. ربحتم الشهرة والمجد ..

قالت يمامة وهي ترفع رأسها إليه من جديد:

ـ لا .. المجد عندنا لا يتحقق للرسام بسهولة .. فالناس هنا يحترمون طبيب الأسنان .. ذلك الذي يفني عمره ويداه محشورتان في أفواه الناس .. أكثر من احترامهم للفنان الذي لا تلمس يداه غير الألوان والأقلام وأدوات الرسم.

ضحك بصوت عالٍ مرة أخرى .. فنادت خالتها من الداخل صائحة بعصبية:

ـ يمامة أين صرت؟

في تلك الليلة لم تنقطع أصوات الدق والطرق والضرب في بيت جيرانهم الجدد. وبدون سبب واضح كانت الأصوات تسكن

حيناً من الوقت ثم تعود لتعلو وتتواصل حيناً آخر، محيلة صمت الليل وسكونه إلى شيء مفزع وغريب .. سألتها خالتها في الصباح:

– ألم ينتهي هؤلاء الناس من ترتيب البيت بعد؟ .. لم أستطع النوم طيلة الليل.

قالت يمامة:

– ولا أنا

قالت الخالة :

– وماذا يفعلون؟

قالت يمامة:

– لا أعرف .. كأنهم يدقون مئات المسامير في الجدران.

فصمتت الخالة قليلاً ثم اكتسى صوتها بنبرة تأنيب:

– هذا الذي جاء يطلب شمعة ليلة أمس .. ما قلت اسمه؟

قالت يمامة:

– اسمه مثنى.

فهزت الخالة يدها دونما سبب واضح، وقالت وهي تأخذ قطعة خبز من الطبق وتغمسها في الشاي الذي أمامها:

– يا إلهي .. يبدو أنها جيرة مزعجة من أولها.

# وحش البحر

## -1-

سرت في الجو نسمة هواء طرية .. استقبلتها فور خروجها من البيت فأنستها حر الليلة الفائتة وظلامها ونومها المزعج المتقطع القصير .. مر بائع الغاز يجر خلفه مقطورته التي تقعقع وتجلجل من أثر ارتطام القناني مع بعضها البعض. فسأله « كاظم » الذي كان يقف بالباب كعادته كل صباح:

- بكم تبيعون قنينة الغاز؟

ابنه عمر خرج رافضاً تناول فطوره.

فلم تسمع « يمامة » جواب البائع على سؤاله ولكنها سمعت، وربما استنتجت رد « كاظم » المعتاد الذي يقول:

- هيّه هاي اشتراكية؟

ابتسمت في سرها وتحاشت أن تلقي عليه تحية الصباح خوفٍ أن لا يجيبها عليها بعد أن زاد بائع الغاز مزاجه- المتعكر دائماً- تعكراً وانزعاجاً. في طفولتها كانت تراه دائماً يقف بالباب مرتدياً ثيابه الداخلية فقط كانت تسميه مع صويحباتها بالفقمة أحياناً وبوحش البحر أحياناً أخرى، الآن لم يعد كالفقمة ولا يقف في الباب نصف عارٍ كما اعتاد أن يفعل في السابق، ولكنه ظل يهوى رش المياه من خرطوم حديقته إلى الشارع وأصبح يفعلٍ ذلك، بحكم تقاعده عن العمل، في الصباح وبعد الغروب مرتدياً فانيلة بيضاء وسروال بجامة مقلمة. هبطت ثلاث بنات صغيرات خرجن

من بيته دفعة واحدة وسرن خلف يمامة باتجاه الشارع العام .. واجتزن آخر بيت من بيوت الزقاق وهو الذي يطل على الشارع العام، فتوقفت الصغيرات ورحن يقرأن اللافتة السوداء التي كانت لاتزال معلقة هناك بالرغم من مضي أكثر من شهر على وفاة الخالة هنوة. أخذت الصغيرات يفترضن أسماء أخرى توضع على اللافتة بدلاً من اسم الخالة هنوة .. ثم أخذت كل واحدة منهن تضع اسم الأخرى في المكان المقترح حتى تحول مزاحهن إلى شجار. لم تكن يمامة تعتقد أن هنوة يمكن أن يكون اسماً حقيقياً لها حتى ماتت ورأته مكتوباً على لافتة النعي السوداء تلك .. لحظتئذ فقط اكتشفت أنها أخطأت عندما كانت طيلة حياتها تظن أن هذا الاسم هو اسم تدليل لاسمها الحقيقي الذي قد يكون هناء أو هانئة أو هنية واستغربت كيف ينقضي عمر بأكمله وهي تفهم شيئاً ما على هواها لا على هوى الحقيقة، ثم تأتي لحظة مثل هذه لتدلها على أن فهمها كان خاطئاً وأنها أخذته على علاته وتكاسلت عن تصحيحه لأنها اعتقدت أن في الوقت ثمة متسعاً دائماً.

قطع عليها مثنى تأملاتها وهو يبزغ أمامها مثل جنيّ خرج للتو من قمقمه .. كان منشرحاً وعلى وجهه ضحكة تبدو وكأنها تتمة لآخر ضحكة أطلقها ليلة أمس عندما كان متشبثاً بالسياج، يحمل الشمعة العنيدة في يده. قال:

– أين تذهبين؟

قالت له:

– إلى دائرة الأحوال المدنية.

قال :

– هل هي على طريقي؟

قالت له :

وأين هو طريقك؟

قال :

– لدي محل أدوات زراعية قبل تمثال أحمد حسن البكر.

سألت حسن الخطاط في اليوم نفسه :

– صديقك هذا ماذا يعمل؟

فقال :

– لديه منحل . . ومحل لبيع العسل والنباتات الظلية والعِدد الزراعية .

ثم أردف :

– صحيح أن العائلة مكونة من الرجال فقط . ولكنهم أناس طيبون .

قالت :

– ولكني لمحت صبياناً في البيت .

قال :

– هؤلاء هم اخوته . .ولكن أمهم متوفية والأخ الأكبر هو الذي يقوم برعاية الجميع وإدارة شؤون المنزل .

قالت :

– والأب ؟

قال :

– تزوج وذهب مع امرأته الجديدة إلى مكان لا يعرفونه .

قالت :

– ألا يزورهم أو يسأل عنهم؟

قال :

– كان يفعل ذلك فيما مضى . ولكنه انقطع عن ذلك منذ فترة .. ولا أحد يعرف عنه شيئاً . .ربما سافر . . وربما هاجر . . ربما مات .

قالت له :

– غريبة !

قال :

–لا . . ليست غريبة . . الرجال كالهررة أحياناً .

قالت :

– ومن يصرف على البيت إذن؟

قال :

– مثنى وأخوه الأكبر . . وهم يمتلكون هذا المنحل إضافة إلى مزرعة في الدورة . . يعني أمورهم المادية جيدة .

قالت له:

- يبدو كذلك.

قال:

- وإلا لما استطاعوا شراء هذا البيت.

تكرر الطرق في تلك الليلة أيضاً حتى الصباح .. واستيقظت يمامة وخالتها أكثر من مرة أثناء الليل على أصوات طرقات قوية تشبه دق المسامير، فاستعصى عليهما النوم بعد ذلك، وصبت الخالة أقوى لعناتها على تلك الجيرة المزعجة التي لم تكن تخطر لها على بال ثم طرقت بابهم مع انبلاج الصبح وبعد أن انتهت من صلاة الفجر على الفور .. ثم عادت بعد قليل منفعلة تهمهم وتلعن الشيطان الرجيم لأنها لم تصطبر على إزعاجهم ذلك حتى الصباح.

قالت يمامة لمثنى:

- صباح الخير.

فتهللت أساريره وقد رآها واقفة في الباب وقال:

- يا أهلاً بهذا الصباح. تفضلي.

قالت له:

- ما هذه الضوضاء التي في بيتكم طيلة الليل؟

صمت ولم يجب .. ثم قال بعد قليل:

- نحن آسفون جداً .. هل أزعجناكم؟

قالت له بعصبية:

- طبعاً أزعجتمونا .. هذا شيء غير محتمل ولامعقول.

ظل واجماً لفترة لا يعرف ماذا يقول .. ثم تململ وقال بغضب:

- أنا آسف جداً ..أعدك بأن لا يتكرر هذا.

ندمت فور أن تركته على انفعالها وعصبيتها معه .. وبقيت طيلة الصباح متعكرة حزينة لا تعرف لماذا تصرفت معه بهذا الشكل وكيف تصحح ما فعلته في أقرب وقت. كان حسن الخطاط قد أخبرها عن اسم محله .. فهبطت من الحافلة قرب تمثال أحمد حسن البكر وهي في طريق عودتها إلى البيت .. وراحت تبحث عنه حتى وجدته .. لم يتهلل وجهه هذه المرة كما فعل في الصباح، وإنما اكتفى بابتسامة صغيرة أفصحت عن سعادته بقدومها إلى محله وفي الوقت نفسه عن معنى آخر معلن وغير خفي يمكن التقاطه بسهولة وتميزه عن إحساس الغضب الذي خالط نفس الابتسامة وأضاف إليها معنى آخر .. قالت له:

- أنا آسفة .. لم أقصد إيذاء مشاعرك.

قال وقد زال الغضب عن ابتسامته على الفور، وبقي ذلك المعنى الخفي معلقاً عليها بشكل ساحر وخلاب:

- إذا كان الأسف هو الذي أتى بك إلينا. فمشاعري كلها تحت تصرفك ..آذيها كيف شئت.

لم تستطع يمامة أن ترفع نظرها إليه في تلك اللحظة. شعرت

أن كلماته جميلة إلى درجة أنها تعذبها في الوقت ذاته التي تطربها فيه .. كانت هناك في عزّ حرّ الظهيرة، برودة منعشة يبعثها مكيف الهواء الذي كان يعمل فيثير هواؤه البارد روائح نباتات سرخس ولبلاب وجذور نباتات ظلية متفسخة . شعرت يمامة، بالرغم من ذلك الهواء المنعش، أن الحرارة في وجهها كانت تشع بأقوى مما يمكن التخلص منه. فاستأذنته على الفور للمغادرة، ولكنه استوقفها قائلاً:

- هذه أول مرة تدخلين فيها المحل .. سآتيك ..

قاطعته قائلة وهي تنظر إلى عينيه بصعوبة.

- لا .. لا أريد شيئاً.

قال:

- ألست عطشانة؟ سآتي لك بالماء على الأقل.

قالت:

- حسن .. ماء فقط ..

قال:

- ثم نرجع سوية..

بعد أن شربت الماء البارد قالت له:

- ولكنك لم تخبرني ما هذه الضوضاء التي كانت تنطلق من بيتكم طيلة شهر كامل؟ .. ماذا تفعلون طوال الليل؟

قال وعلى وجهه تعبير جاد:

– نحن نصنع التوابيت.

انقضت كلماته وتاهت كأنها لم تحكَ .. وهكذا كان وقع الأهوال في المرة الأولى حتى أن يمامة اعتقدت أنه يمزح .. وظلت تنظر إلى وجهه وهي تتوقع منه أن يضحك في أية لحظة .. إلا أنه لم يضحك ولم يكن يبدو على وجهه أي تعبير للمزاح ..إنما أكد لها تلك المعلومة بشكل أكثر حزماً بعد قليل وهو يقول:

– فعلاً .. نحن نصنع التوابيت.

قالت له: هل تمزح؟

قال:

– كلا .. ولِمَ أمزح؟! ألم تلاحظي سيارات للخشب تقف قرب بيتنا بين الحين والآخر ..هذه الألواح الخشبية من أجل صنع التوابيت وأصوات دق المسامير طيلة الليل هي لأننا لا نجد الوقت لصناعتها إلابعد أن ينام الأطفال ويلتئم شملنا نحن الإخوة الكبار في آخر الليل.

كانت يمامة لا تزال عاجزة عن تمييز الجد من المزاح في كلامه .. إلا أنها وجدت كلامه في كلتا الحالتين صادماً وغير محتمل. فقالت له في محاولة أخيرة لانتزاع حيرتها مما هي فيه:

– أحقاً ما تقول؟

قال وقد زادت ملامح وجهه جدية:

- ألم تلاحظي أن الست هنوة قد ماتت في اليوم نفسه الذي وصلنا فيه إلى الزقاق؟

نظرت إليه يمامة ببلاهة لابد منها وكانت حيرتها قد هبطت إلى ذروة أقل ارتفاعاً من الذروة الأولى .. قالت له:

- وما علاقة هذا بذلك؟

قال وهو يضحك هذه المرة:

- ألا يشعر المرء بأوجاع في بطنه بعد أن يقرأ أو يشاهد فلماً عن أوجاع البطن؟ هذا هو ما حدث للست هنوة؟..

ثم اتسعت ضحكته قليلاً. صمت بعدها كاتماً ضحكته وهو ينظر إلى يمامة بحياد .. ثم ضحك مرة أخرى فقالت له وبلاهتها تتحول إلى غضب:

- هل كنت تمزح؟

قال وهو يحاول تلافي انفعالها:

- هل زعلت .. بالطبع كنت ..

وبدون أن تسمع تتمة كلامه أو تقول شيئاً يمكن أن يقال، أصبحت خارج المحل في أقل من اللحظات التي تفصل بين طرفة عين وأخرى. في داخلها تتصارع انفعالات شتى وتغلي من الغضب .. أي مزاح هذا وأكثر من سيارة نقل صغيرة تحمل ألواحاً

من الخشب الرخيص مرت إلى زقاقهم وأنزلته عند بيته الملاصق تماماً لبيتهم .. أي مزاح هذا والخالة هنوة قد ماتت فعلاً في اليوم نفسه الذي وصل مثنى وأهله إلى المحلة؟ وجهها أصبح يشع كالشمس .. أهو مرجل الظهيرة ..أم مرجل رأسها .. أم أنها كانت تشعر منذ البداية أن ثمة شيئاً غريباً في ذلك الرجل .. وأن ثمة خطأ.

## 2

لم تعد تثيره الأخبار ولا القصص والحكايات .. حتى الأسئلة لم يعد يجيب عنها بغير كلام مبهم مقتضب لا يفهم أحد منه معنى محدداً إلا جملة واحدة واضحة ومؤكدة الثبات كان يرددها باستمرار حتى أصبحت لازمة له لا يملك جيرانه إلا أن يرددوها قائلين ما أن يرد اسمه أمامهم:

– هيّه هاي اشتراكية؟

أنزل بائع النفط صفيحتين جعلهما مجعدتين من جميع الجوانب لكي تستوعب كمية أقل من النفط . فقال له كاظم البغدادي:

– هيّه هاي اشتراكية؟

فزع بائع النفط وتسمر في مكانه وصفيحتا النفط على الجانبين تتدليان من يديه، ولما طالت فترة وقوفه نهره «كاظم» صائحاً:

– اغرب عن وجهي .. لا أريد نفطاً.

انزوت «يمامة» على الرصيف حتى مر بائع النفط يجر خلفه خزاناً أخضر اللون مصنوعاً على شكل برميل ضخم ممدد بشكل أفقي فوق العربة. حاول بعض الأطفال فتح حنفية الخزان الضخمة من الخلف وهم يركضون خلف العربة، فنهرهم البائع، ثم توقف مرة أخرى أمام بيت حسن وتقدم الأطفال ضاحكين وراحوا يقدمون للحصان الذي يجر العربة عشباً يابساً اقتطعوه عشوائياً من حافة الرصيف.

ألقت يمامة على لمياء تحية المساء، فردت عليها ضاحكة بصوت خافت، ومضت تحمل كيسها الأسود مملوءاً، على الأغلب، بالعظام وفضلات الطعام، لتأخذها عبر مسافة طويلة تقطعها من أجل الوصول إلى قطتها «توفي» التي تنتظرها عند الإشارة الضوئية في أبي غريب.

شاخت وشاب شعرها وترهل وجهها وبلغت الخمسين من العمر، إلا أنها لا زالت ترتدي ملابس الشباب وتتصرف وكأنها في ربيع العمر، ظنّ أهلها بأنّها مختلة العقل فتركوها على هواها ترعى القطط السائبة الجربانة وتحيلها إلى قطط أليفة نظيفة وسمينة تحوم حولها طوال الوقت وتعسكر في حديقة أخيها موفق آناء الليل وأرجاء النهار .. كانت تشتري قطع الكلاوي والكبد وبعض فضلات اللحم، خصيصاً لها من القصاب وتجلس في الحديقة لتراقب بمتعة واستغراق كيف تتناول تلك القطط طعامها. وعندما بدأت تلك القطط بالتكاثر بشكل سريع ضاق بها أهل البيت وأخذوا يسربونها إلى أماكن بعيدة الواحدة بعد الأخرى، بعد أن اكتشفوا ذات يوم أن لمياء لا زالت تشتري لها الكبد واللحوم، كما كانت تفعل في سنوات الخير، ولكن بالخفية في الوقت الذي لم يعد فيه أخوها وعياله يذوقون اللحم إلا في أحايين متباعدة .. ومن باب الرأفة بها أو اتقاء نوبات هياجها تركوا لها في نهاية المطاف قطها «توفي» كونه ذكراً سيكفيهم فيما بعد مؤونة إيواء أجيال متعاقبة من صغار القطط .. ولكنه هو الآخر رُمي أخيراً في بقعة نائية من أطراف بغداد بعد أن اكتشف أخوها موفق ذات يوم أن لمياء لا زالت تشتري له اللحم وتطعمه

إياه في الخفاء .. وسواها هي لا أحد يعلم على وجه اليقين كيف يمكن لإنسانة أن تضرب موعداً مع قط ينتظرها في مكان محدد لكي تحمل له أطايب الطعام. وكانت كلما سألها أخوها أين تذهب في الوقت نفسه من كل يوم أجابت بصوتها الفتي الخافت:

- إلى توفي .. إنه ينتظرني عند الإشارة الضوئية في سوق أبي غريب.

ولم يكلف أحد من أهل البيت نفسه عناء التحقق من تلك الحكاية الغريبة إنما تركوها تشغل نفسها بتلك المهمة ثلاث مرات في الأسبوع كانت كافية، باعتقادهم، لإبعاد كابوس نوبات الاكتئاب الشديد والانهيار العصبي عنها..

ضرب بائع النفط صحنه المعدني واستوى على مقعده ثم انطلق مبتعداً بعربته عن بيت حسن. كانت سناء لا تزال واقفة في الباب وبيدها بقية النقود التي أعطاها لها بائع النفط .. وعندما رأت يمامة رحبت بها وقالت:

- هذا عجيب يابه .. أين أنت؟

قالت لها يمامة قبل أن تلقي التحية:

- هل زاد سعر النفط؟

قالت سناء:

- كلا .. لا زلنا في الصيف.

قالت يمامة:

- إذن ما به كاظم يتذمر من الاشتراكية؟

قالت سناء ضاحكة:

– هذا هو شأنه دائماً..

ثم دعتها للدخول إلى المنزل وهي تسحبها من يدها مرحبة بها بحفاوة ومحبة. كان حسن لا يزال في الداخل، وعندما وقعت عينا يمامة عليه تذكرت على الفور ما حدث مع مثنى قبل أيام فبادرته بالسلام قائلة:

– هل هو غريب الأطوار أم مجنون؟

قال حسن:

– من؟

قالت يمامة:

– صديقك هذا.

قال يضحك :

– ماذا حدث؟ ماذا فعل؟

قالت يمامة:

– لا .. لا شيء.. إن عائلته تزعجنا بطرق مستمر طيلة الليل.. ولا نعرف ماذا يفعلون أو متى سينتهون من إزعاجنا بتلك الطريقة ..؟

أطرق حسن قليلاً ثم قال:

– يطرقون ماذا؟

قالت يمامة:

- والله لا أعرف .. أصوات عجيبة لا أول لها ولا آخر .. ألم تقل لي أنه يعمل في عسل النحل؟

قال:

- نعم .. إنه يعمل في عسل النحل.

ثم بدا على وجهه تعبير غريب فيه الكثير من الضيق والاستغراب للغة التي تتحدث فيها عن صديقه بدا عليه أنه ضاق بتلك اللغة عن الجار الجديد .. قال بعد صمت:

- على أية حال سأتحدث معه حول الموضوع إن شئت.

قالت له:

- كنت أعتقده إنساناً بسيطاً .. ولكن يبدو أنه ليس كذلك..

قال وهو ينظر باستغراب:

- هل تعارفتما؟

قالت له:

- تقريباً.

قال:

- إنه فعلاً إنسان بسيط.

قالت له يمامة باستغراب :

ـ عمن تتحدث؟

قال :

ـ عن مثنى طبعاً . .

قالت يمامة :

ـ لا أعتقد أنه كذلك أبداً .

قال حسن وعلامات الضيق تبدو على وجهه مرة أخرى :

ـ لماذا؟ ماذا فعل؟

قالت له :

ـ لا شيء . . ولكنه وأهله لا يكفون عن إزعاجنا .

قالت سناء :

ـ قبل أن يأخذكما الحديث . . ماذا تشربين؟

قالت لها :

ـ الجو حار . . أريد فقط قليلاً من الماء .

مضت سناء إلى المطبخ فنهض حسن واقفاً وقال ليمامة قبل أن يخرج للذهاب إلى محله :

ـ هل تريدين أن أقول لمثنى الكلام الذي قلته؟

قالت يمامة:

- أنت ماذا تقول؟

قال:

- سأساله عن حكاية هذا الطرق ولنرَ ماذا يقول؟

ثم استأذنها للخروج وقبل أن يتجاوز عتبة الباب وقف وسألها:

- ولكن هل تحدثت معه أنت عن هذا الموضوع؟

قالت له وهي تأخذ قدح الماء:

- نعم .. حدثته وحدثني، سألته فأجابني بغرابة ولم أفهم شيئاً مما قاله لحدّ الآن.

قالت سناء بعد أن خرج حسن:

- حسن .. حسن .. خذ أحمد معك؟

لم يسمع حسن ما قالته سناء فنهضت إلى النافذة لتناديه، ثم عدلت عن الفكرة، وجاءت تجلس بقرب يمامة من جديد. قالت:

- أي يابه .. هاي وين لين؟

قالت لها وهي تضحك:

- في هذا الدنيا.

قالت سناء:

- أية دنيا هذه .. نحن معك في نفس الشارع ولا نراك ..

قالت يمامة:

– كنت مشغولة بإعداد بعض اللوحات .. والآن فرغت منها؟

قالت سناء:

– جنان سألت عنك قبل يومين.

قالت يمامة:

– جنان؟

قالت سناء:

– نعم .. وتقول إنها زعلانة عليك.

قالت يمامة:

– حقها والله .. لم أرها من زمن .. ما أخبار خطبتها؟

قالت سناء:

– رفضت بالطبع.

قالت يمامة:

– هذه إنسانة أصيلة والله .. بعض النساء الأسرى طلقن أزواجهن غيابياً وهم في الأسر، وهي تنتظر أن يعود «جمال» من الأسر دون أن ترتبط معه حتى بخاتم.

قالت سناء:

– لديها الأمل الخفي بعودته .. وتقول لا يمكن أن تخذله وهو غائب .. وأين؟ . .في عذاب جهنم.

قالت يمامة :

- إنها تحبه جداً .. ولكنني أتخيل أن يعود إنساناً آخر غير الذي عرفته .

قالت سناء :

- أو أن لا يعود أبداً.

قالت يمامة :

- يخيل لي ما دام هناك إنسانة تنتظره وتريده أن يعود بهذه القوة .. فإنه سيعود .

قالت سناء :

- آمين يا رب العالمين .. فقد كبرت جنان .. هي من عمرنا .. ربما يكون هذا الخاطب الجديد هو فرصتها الأخيرة.

لم تشعر سناء بالإحراج أن تشير إلى تقدم جنان في العمر وهي من عمرها ومن عمر يمامة .. فقد اعتادت أن تضعها خارج خانة الاعتبارات التي تمليها وتسري على الأخريات .. كانت بالنسبة لها حالة خاصة لا يمسها الإحراج من هذا الكلام الذي يمس باقي النساء لأنها لم تكن بالنسبة لها من النساء أصلاً ..

ضحكت يمامة وقالت لسناء وهي تقلد طريقتها في الكلام:

- وكم هو عمرنا يابه؟

قالت سناء :

- والله أنا سأطخ الخامسة والثلاثين بعد أشهر .. أما أنت فبكيفك!!

قالت يمامة وهي تتصنع الدلال:

– أنا لن أطخها أبداً ..

قالت سناء:

– حقك والله .. من يراك يعتقدك في العشرينات ..

ثم نهضت إلى النافذة لتتأكد من وجود أحمد في الحديقة .. ثم عادت وقالت لها ووجهها يتقد بالوداعة:

– ابقي معنا اليوم على العشاء .. فحسن.

قاطعتها يمامة قائلة:

– ولكن تعرفين .. عندي بعض أعمال البيت لكي تنجز..

قاطعتها سناء بدورها:

– اذهبي وأنجزي ما وراءك .. ثم تعالي وتعشي معنا .. ها .. زين يابه؟

قالت يمامة وهي ترضخ لإلحاحها الجميل:

– زين يابه.

خرجت يمامة إلى الحديقة .. فشاهدت حسن وهو عائد إلى البيت يحمل أكياساً فيها بعض الخضروات. قالت لها يمامة:

– نادتك سناء قبل قليل ولم تسمع.

فقال:

– سمعت .. ولكني فكرت أن أذهب أولاً لشراء بعض الحاجيات قبل فتح المحل.

انتبه أحمد إلى وجود أبيه فهرول من الحديقة لملاقاته ثم عاد إلى أدراجه مرة أخرى بعد أن أعطاه حسن قطعة حلوى. قالت يمامة:

- أنا ذاهبة . ولكني سأعود لأتعشى معكم .. هكذا أمرت سناء.

قال حسن:

- سننتظرك إذن .. وربما بعد قليل سأمر إلى مثنى لأسأله حول الموضوع.

قالت يمامة:

- لا داعي لذلك .. اسأله متى ما تراه أو يجيئك إلى المحل.

ثم سارت يمامة باتجاه الباب الخارجي للبيت وقبل أن تصل إليه التفتت إلى حسن وقالت :

- حسن .. هل لاحظت الشبه الكبير بين مثنى وحازم.

قال لها:

- نعم .. انتبهت إليه منذ وقت طويل.

## 3

حازم كان في حياتها نبعة الريحان عندما جاء وبعد أن رحل.. وكانت كلما اشتاقت إليه التقته في الحلم حتى لم تعد تحلم بأحد آخر سواه . ثم مرت سنوات الشوق سنة بعد أخرى بعد أخرى .. وهدأت أشواقها إليه فتباعدت أحلامها به ثم انقطعت ولم تعد تراه في الحلم مرة أخرى .. حزنت لذلك حزن الدنيا وغابت رائحة الريحان من أحلامها بعد أن لم يعد عود الريحان مزروعاً في الأرض .. ولكن فتى المناحل بائع نباتات الظل وأدوات الزراعة وخلايا عسل النحل ظهر لها من خلف سياج البيت الذي كان مهجوراً فيما مضى فسكنه وأحياه مرة أخرى، وردها الشبه الهائل بينه وبين حازم إلى أيام خلت فشاقها إلى تلك الأيام وعاودها الحلم بحازم من جديد .

أية مصادفة تلك التي جعلت مثنى يجاورها على مسافة أمتار لا يفصلها عنه سوى سياج واطئ وهو يحمل ذلك الشبه الهائل بينه وبين حازم ليستقر به إلى جوارها دون كل النساء، ويعيد إليها أيام ريحان كانت تكفي رشة ماء صغير ليتضوع عطرها من جديد ..

سألت حسن قبل أيام إن كان قد لاحظ ذلك الشبه بين حازم ومثنى فقال لها إنه انتبه إليه منذ زمن ..

قال:

- وقد ترددت طويلاً لهذا السبب قبل أن أدل مثنى على البيت لشرائه.

- ولكنك فعلت في النهاية.

- نعم .. ولا أدري لماذا .. نفعل الكثير من الأشياء دونما سبب واضح .. أعني سبب ظاهر .. ولكن الغلبة في النهاية كما يبدو هي للعقل الباطن.

- هل لاحظت تشابه الصوت أيضاً.

- تشابه الأشكال يقود في الأغلب إلى تشابه في الأصوات.

- وهل يعرف هو بهذا الأمر.

- لا أعتقد ..ولكن لا يجعلك الشبه تعتقدين أنهما شخص واحد.

ولم تعتقد يمامة بذلك أبداً .. ولم يخطر لها على بال ولكنها كانت كلما رأته تراءت لها نبعة الريحان وشمت رائحة نرجس وقرنفل وجوري وياسمين ولمّح حسن من بعيد قائلاً:

- مثنى كان خجولاً فيما مضى ولكنه أصبح مزاجياً غريب الأطوار أينما تضعيه يعيش .. ويستطيع أن يقنع ابن السوق أنه ابن سوق أباً عن جد، مثلما يستطيع أن يقنعك أنه رومانسي بطعم البنفسج.

ولكن تلميح حسن لم يمنعها من أن تنظر إليه وتتأمل وجوده كشيء أضفى على عود عباد الشمس رائحة البنفسج ..ولولا أن أخافها بمزحته الحمقاء الغريبة تلك لكانت غير منزعجة منه البتة.. راضية عنه تماماً .. ولا تحاول الكف والابتعاد والنظر ملياً إلى زهرة عباد الشمس التي نبتت في البيت المهجور من تلقاء

نفسها وتعملقت وأزهرت عن ورود صفراء عظيمة الأحجام ولكن بلا ضوع أو ليونة أو ملمس ناعم.

- ما شأني بها..

قالت يمامة لنفسها مراراً وتكراراً .. وهي تنظر إليها من نافذة غرفة نومها العلوية بضيق أحياناً .. وحياد أحياناً أخرى .. حتى وجدتها ذات يوم مقلوعة ومكومة على الأرض .. بقربها مجرفة.. ومثنى يزرع بدلها أقلاماً من الورد يغرسها في الأرض ثم يمسح عن جبهته قطرات العرق الذي فصدّته الشمس فتبدو جبهته بيضاء ناصعة كالحليب.

في ذلك اليوم الذي رأت فيه مثنى يزرع أقلام الورد وبقربه المجرفة على الأرض، حلمت بحازم مرة أخرى .. حلماً طويلاً ستظل تتذكره بوضوح تام لأنه بدا لها ، خلواً من الخلخلة، وكأنه حدث فعلاً في يوم من أيام القصف الأربعين، لا كأنه قد زارها في المنام .. حلمت في ذلك اليوم أنها قد وصلت إلى ساحة النسور بسيارة حكومية حملتها من الطريق إلى هناك لتكمل سيرها مشياً على الأقدام .. ثم عبرت ساحة النسور باتجاه الحارثية وفي نيتها الذهاب إلى ساحة الاحتفالات في شارع الزيتون. وعندما بدأت تسير بموازاة البيوت المحاذية للجسر السريع المؤدي إلى ساحة الاحتفالات الكبرى سمعت صوتاً يناديها من بعيد:

- يمامة.

لم تستطع أن ترى الوجه جيداً في غبش الصباح .. إلا أنها استطاعت أن تتبين قوام فتاة شابة تقف في باب أحد البيوت

تمسك في يدها شيئاً كالمجرفة .. اقتربت منها فتعرفت في عينيها على وجه زميلة لها من أيام الثانوية ..كان الاسم يراوغ طرف لسانها دون أن تستطيع الإمساك به، فاستغربت يمامة كيف استطاعت التعرف عليها من تلك المسافة البعيدة سألتها ذلك. فنظرت إلى رجلي يمامة وقالت وهي ترتجف:

– تعرفت عليك من مشيتك.

قالت لها يمامة:

– وماذا بك؟ إنك ترتجفين.

نظرت إلى الشارع كمن يبحث عن أحد ما .. ثم صمتت ولم تجب .. أعادت عليها يمامة سؤالها وقالت لها:

– ماذا حدث؟ ماذا هناك؟

قالت وهي تبكي:

– أريد أن أدفن جنيني.

بدت كلماتها غامضة وغريبة .. وشكت يمامة في أن تكون قد سمعتها جيداً فسألتها مرة أخرى:

– ماذا قلت؟

فقالت وهي تنظر إلى الشارع مرة ثانية وكأنها تبحث عن أحد ما أو شيء ما.

– أبحث عمن يدفن لي جنيني؟

نظرت يمامة إلى وجه المرأة المرعوب المبعثر، فتأكدت أن شيئاً ما رهيباً قد حدث لها قبل قليل .. قالت لها:

– ماذا حدث؟

قالت وهي لا تزال ترتجف وتبكي:

– تهشم زجاج بيتنا بأكمله بعد الغارة .. زوجي ليس هنا، إنه في الكويت .. وعندما نهضت من الفراش شعرت بالآم شديدة في بطني ثم جاءني المخاض ففقدت جنيني وأنا أتلوى لوحدي على أرض الحمام.

سألتها يمامة:

– هل آخذك إلى المستشفى؟ إنه قريب.

قالت :

– كلا .. أنا بخير . أريد فقط أن أدفن الجنين ولا أجرؤ على ذلك..

قالت لها يمامة:

– هل آخذه إلى المستشفى؟

قالت المرأة:

– كلا .. سيرمونه في القمامة هناك .. إنه صغير جداً ولا يزال في الأشهر الأولى.

ثم استدركت وكأنها فطنت للتو إلى أمر ما:

- ولكن أين أنت ذاهبة في هذا الوقت؟

قالت يمامة:

- ذاهبة لأوقف هذه الحرب.

ضحكت المرأة بخوف .. ثم نظرت إلى وجه يمامة وقالت:

- خذيه معك ..

ثم رمت المجرفة إلى الحديقة دون أن تسمع جواب يمامة .. ودخلت مسرعة إلى البيت .. كان القصف قد أحال الحياة إلى شيء بدائي بكر وكأنما يدا الآلة لم تمر عليها أو تمسسها بعد .. وكانت حركة المرور في الشارع العام معدومة تقريباً، وثمة صمت موارب في الجو يقطعه بين الحين والآخر مرورة سيارة حكومية تخرق هذا الصمت فجأة ثم تتركه ليلتئم من جديد ويعود أكثر امتداداً في الأذن.. الفضاء منفتح على سحابة كثيفة من الدخان لمت شتاتها من دخان النيران التي أشعلتها حرائق الآبار والمنشآت النفطية .. رائحته تشبه رائحة مسدس أطلق رصاصة للتو وثمة صف من جذوع الأشجار اقتطع الحطابون أغصانها طلباً للوقود .. فبدت آثار تلك الأغصان المقطوعة غائرة في اللحاء كجروح بيضاء.

جاءت المرأة بعد قليل وهي تحمل بيدها لفافة من قماش أبيض قدمتها ليمامة ثم قالت:

- هذا هو جنيني .. خذيه.. لا أجرؤ على دفنه بنفسي.

انتاب يمامة الشك لحظتئذ في صدق ما تقوله تلك المرأة .. ثم

وجدت اللفافة في يدها بيضاء ناصعة ولا تشوبها أية لوثة دم .. أخذتها منها .. نظرت إليها ملياً .. ثم قالت لها:

– أأنت متأكدة أنه يوجد جنين داخل هذه اللفافة؟

قالت:

– نعم.

ثم رفعت طرف اللفافة قليلاً لترى ما بداخلها فوجدت كيساً من النايلون بداخله قطعة من اللحم تشبه كفاً صغيرة بلا أصابع تنفر من علقة مدماة تشبه مشيمة الأم بعد الولادة..

قالت المرأة بصوت متهدج:

– هل ستأخذينه؟

ثم راحت تبكي بكاءً شديداً وترتجف بلا توقف.

قالت لها يمامة:

– حسن .. حسن .. سآخذه معي.

استدارت يمامة لكي تواصل مسيرها ولكن المرأة استوقفتها قائلة:

– أين ستأخذينه؟

قالت لها:

– معي .. إلى ساحة الاحتفالات .. ألم أقل لك أني ذاهبة لأوقف هذه الحرب.

قالت :

- أيمكنك أن تسميه؟

صمتت يمامة قليلاً ثم قالت :

- نعم .

قالت المرأة :

- ماذا ستسميه؟

قالت يمامة :

- سأسميه حازم .

ثم نظرت إليها باستغراب وقالت :

- أتعرفين أني قد نسيت اسمك؟

قالت المرأة وهي تشهق بالبكاء :

- كيف تنسين اسماً مثل اسمك؟ اسمي يمامة .

## 4

فرق بين أن تفعل الشيء بأصالة أو أن تفعله لأنه مطلوب منك أن تفعله. قالت يمامة لحسن مراراً و تكراراً وهي تراه يحوّل آخر جلسات أفكاره وتأملاته وشطحاته إلى رغبات للمساومة على درهم أو درهمين من أسعار الخيار والطماطة والبصل والباذنجان.

قال لها وهو أقرب ما يكون إلى طبيعته الأولى:

– المحطات .. هل يصنعها النازلون، أم الصاعدون؟

قالت له:

– الصاعدون طبعاً.

مال وهو يهز رأسه بأسف:

– بل يصنعها النازلون ..

ثم قال وهو يرفع رأسه عن الأوراق التي يخطها أمامه:

– لأن السائق مضطر للتوقف لمن هو معه في الحافلة .. ولكنه غير مضطر للتوقف لمن هو خارجها ..

قالت له:

– هل نزلت من الحافلة إذن؟

قال:

– نعم .. دعها تحفل بالجميع .. أما أنا فقد نزلت لأرتاح.

ثم أردف:

- أما أنتم فلا زلتم تقفون في مكان تعتقدون أنه يصلح لأن يكون محطة للصعود. ولكن لا أحد يتوقف لكم .. الكل يترككم ويمضي بضيق ولا مبالاة..

قالت له:

- لم نختلف يا حسن .. أنت نزلت، ولكن نزولك لا يعبر عنك .. كان نزولاً بلا أصالة ..

صمت قليلاً وهو ينظر لها بضيق فيه حنو .. وحب .. وصبر.. ثم قال لها وهو لا يريد أن يجعلها تبدو مهزومة:

- هل تعرفين يا يمامة . أنا لا زلت أبذل مجهوداً كبيراً وخارقاً كي لا تضيع مني بطاقتي التموينية أو بطاقة السكن أو بطاقة الأحوال المدنية ..لكي أجعل كل شيء يسير بنظام كان علي أن أقوم بجهد جبار لا طاقة لي به .. وكان ذلك صعباً في البداية .. صعباً جداً .. حتى أني كنت أتلفت أحياناً، وأنا أعبر الشارع، أتساءل بيني وبين نفسي .. مع من أنا؟ هل أنا لوحدي؟ هل نسيت شيئاً؟ أين سناء الآن؟ في البيت أم المدرسة أم معي؟ هل تنتظرني في مكان ما وقد نسيتها؟ هل المفروض أن تكون معي الآن وأنا أعبر الشارع ولكني سهوت فأضعتها في مكان ما؟ وأظل للحظات واجماً ألملم شتات نفسي لأعرف ما هو مطلوب مني في تلك اللحظة بالضبط . حتى إذا ما عرفت أين أنا بالضبط وأني لم أنسى شيئاً مما كان يجب أن أفعله، عاد لي هدوئي وعبرت الشارع بسلام.

قالت له :

– ألا يدكك هذا التشتت دكاً؟

قال :

– في البداية فقط . . الآن اعتدت الحياة الهادئة . . الرتيبة . . النمطية بل أستطيع أن أقول أني أشعر بالخجل من حياتي السابقة . . من نزقي وصعلكتي فيما مضى .

ثم ضحك ورفع كتفيه باستسلام وقال :

– صرت زوجاً .

ضحكت يمامة ووجدته في تلك اللحظة حسن الذي طالما عرفته . . ضحكته الجميلة لم تعرف أجمل منها بين ضحكات الرجال . .وروحه المترامية أكبر من أن تلمها بدلة جسد أو خيطان قميص، فتفيض عنها دائماً وتظهر واضحة للعيان وكأنها شيء يُحس ويُرى ويُسمع . كان وسيماً جداً . .لحيته الخفيفة تزيد وجهه نضارة وهيبة . .عيناه السارحتان هما المنفذان الوحيدان اللذات يجعلان روحه تتمدد براحتها عندما تضيق بحجم الجسد . . ووجدت نفسها تفكر لماذا رفضته؟ . . وكيف؟ . . ومتى . .؟ تذكر حسن قريباً منها دائماً . . ولكنها لا تذكر بالضبط لماذا رفضته زوجاً لها . .أرفضته لطول ما تلازما في الطفولة والحياة الجامعية؟ . .أرفضته لأن حازم ظهر في حياتها في تلك النقطة الحيوية التي تتحول فيها الفتاة من طفلة إلى امرأة؟ أرفضته لأنها قد تشبعت به وحفظته ولم يعد فيه شيء مجهول

يمكن لها أن تكتشفه أو أن يثير فضولها كامرأة؟ . .أخافت منه لصعلكته وشطحاته وغرابة تطلعاته؟ . . هو اليوم أبعد ما يكون عن كل ذلك . . زوج مثالي وصاحب مهنة مستقرة ويفعل كل ما هو مطلوب منه بانتظام يثير الدهشة . . أيفعل ذلك نكاية بها؟ . . هل يحاول دون وعي منه، أن يجعلها تندم عليه؟ . . هل ندمت؟ لا تعرف ولا تذكر بوضوح لماذا رفضته . . ولا تذكر أنها ندمت . . تذكر حازماً فقط بقوة . . وتذكر كم كانت الأيام معه جميلة . . بلا خوف بلا ندم . . بلا أي شيء . . عندما كان الوقت يطير كالدخان . . ولا يجثم على الصدور وكأنه عقارب سوداء لم تعد تتحرك في أي اتجاه . . أيهما كان حباً وأيهما فراراً؟ قال وكأنه يقرأ أفكارها:

– صعب . . صعب جداً . .

قالت له:

– وما هو الصعب؟

قال:

– أن نحاول تحديد مشاعرنا.

فاجأها جداً . . فأخذت تنظر إليه بخجل . .قال:

– لقد ارتكبنا بحق بعضنا البعض بعض الأخطاء . . ومع ذلك لا يزال ولعي بك كبيراً . . لا أريد أن أسميه حباً لئلا يقودنا ذلك إلى قصة فاشلة أخرى . . ولكني متأكد من شيء واحد فقط . . وهو أنه لم يعد يفرحني إلا أشياء قليلة جداً في هذه الحياة . . وأنت من بينها فرح كبير .

قالت يمامة:

– كنت أعتقد أني أسبب لك الألم.

قال بحزم:

– لا أبداً .. أنت شيء جميل جداً في حياتي .. وهذا يكفيني.

نظرت يمامة كالمأخوذة فقال وهو لا يزال ينظر إليها بحنو:

– الجروح التي لا تندمل . .ضرورية للفنان..

قالت وهي تجد صعوبة في الكلام:

– وما هي أصعب الجروح؟

أطرق وهو ينظر إلى الأوراق التي أمامه ثم قال ضاحكاً:

– جروح حافات الأوراق.

ضحكا سوية في اللحظة نفسها .. ضحكا ضحكة مخادعة.. وكأنهما أرادا التواطؤ مع هذا الضحك لتسخيف كل الكلام الذي قالاه والتخفيف من جديته وخطورة معانيه .. أرادا بهذا الضحك أن يستديرا فجأة عن الطريق الرئيسي المظلم ويدخلا زقاقاً فرعياً فيه قليل من الضوء . قال لها وهو لا يزال يضحك:

– ما أخبار لوحتك؟

تمت الاستدارة كاملة .. فقالت له وقد اختفت ضحكتها:

– خافوا منها فاستبعدوها.

قال :

– أغبياء والله .. ألم يظهر عبد الكريم قاسم في التلفزيون بعد أحداث الكويت؟

قالت له:

– بلى ظهر .. ولكن التلفزيون شيء، وهم شيء آخر ..

قال:

– كنت متوقعاً ذلك .. الذاكرة دائماً عندنا مصدر إحراج.

قالت له وكانت لا تزال تفكر فيما قاله لها قبل قليل:

– ولكنك لم ترتكب خطأ بحقي يا حسن؟

قال وقد عادت إليه ابتسامته الحانية:

– حقاً؟

قالت له:

– بالطبع.

ثم أضافت:

– هل تحب سماع أشياء حلوة أخرى .. قال وهو يبتسم باستعداد:

– ماهي؟

قالت:

– أنت ساحر الحديث .. تعرف كيف تفهم الأمور على حقيقتها بالكبرياء الواعية .. لا بالكبرياء الفارغة ..

ضحك بعمق وقال:

- الله .. الله ..

ثم أطرق قليلاً وقل تلاشت ابتسامته:

- أنا معك فقط ساحر الحديث يا يمامة .. أنا معك فقط على حقيقتي .. أما مع الناس فنسخة أخرى تتحدث عن الحمص والعدس والفاصولياء وكافة أنواع البروتينات.

وضعت يمامة حقيبتها على كتفها ثم قالت:

- حسناً .. يجب أن أغادر الآن..

فلم يرد .. كان واجماً ينظر إليها وكأنه لا يراها ..كان يحاول أن يستبقيها معه ولا يستطيع .. كان موجوداً فقط مع أدواته ولكنه خارج المكان .. وهي أيضاً كانت قد جاءت تسأل عن مثنى وإن كان قد تبين جواباً جاداً عن أمر تلك الأصوات الليلية التي تنطلق من منزله منذ اليوم الأول الذي جاؤوا للسكن فيه .. ولكنها لم تجد الجو مناسباً لمثل هذا السؤال ..كان المكان فجأة قد التقط ذبذبة قديمة فأزمن بها ولم يستطع منها كلاهما فراراً .. الجو أخذ يبرد قليلاً ونسمات الخريف المبكر تعبث بأوراق الأشجار اليابسة المتناثرة على الأرض وبعض أكياس النايلون الفارغة، التي حملها الهواء من الخرابة التي في نهاية الشارع، تتحرك ببطء ثم ترتفع قليلاً ثم تنتفخ ثم تهوي مرة أخرى وتهفت ساكنة على الأرض.

# ثلاثون امرأة

## -1-

ظهر المفتشون الدوليون في التلفزيون وهم يعبثون بالأدراج والمكاتب وسلال المهملات .. نثروا الأوراق وراحوا يدققون النظر فيها ويصوبون أجهزتهم الدقيقة المحمولة فوق صدورهم نحو الجدران والسقوف والأراضي الجرداء. قال طارق عزيز إننا إذا تركناهم يفتشون إلى مالا نهاية فسينتهي الأمر بهم إلى تفتيش جيوبنا أيضاً .. ولم يبالِ المفتشون بما قاله ومضوا يهبطون من سياراتهم اللاندكروزية باندفاع وينصبون الكاميرات في كل مكان.. يضعون أيديهم على الوثائق الموجودة في أدراج الجامعات ومعامل الحليب وحقول الدواجن .. ويمخرون على الشاشة بأحزمة جلدية أنيقة مدججة باللاقطات والمرسلات والمسبارات .. غير مبالين بلعنات المذيع وقد لاحقتهم وهم يدخلون إلى دير في الزعفرانية .. ليس لأنهم لا يسمعونها، بل لأن أحدهم ابتسم بتأثر بالغ وهو يفتح أحد أبواب الدير فجأة ليجد أطفال بمسوح الرهبان يرددون ترتيلات وصلوات وقراءات من الانجيل .. وبعد قليل اختفى كل تعبير للتأثر من وجهه وتوجه، بعد أن غادر القداس، إلى مجموعة راهبات يفتقن بأصابعهن تراب أرض خلاء في مكان من الدير ويدعكنها قبل بذر البذور .. وجّه المفتش مسباره إلى الأرض .. ولبث ينتظر النتيجة .. كان ذلك المفتش وسيماً .. ويرتدي ملابس قطنية جميلة وحذاء مريحاً ..سألت يمامة نفسها من يكون ذلك الرجل؟ أهو أمريكي يعيش حياة طبيعية مثل باقي البشر؟ أم أنه شين اوكنري مبرمج لتمثيل فيلم

سينمائي ليست له بداية ولا نهاية؟ .. مهما كان جاداً في عمله ..فهو يتحرك أمام الكاميرا وكأنه يمثل .. يمشي ويستدير ويتحرك مشبعاً بأسلوب أفلام الأكشن التي خطفت أنظار العالم ببريق رجال الخوارق ورموز المستحيلات .. أفلامهم تصنع لزعزعة العقول، فهل هم قادمون للإجهاز على ما تبقى منها؟ قال الطيار العراقي الذي كان مكلفاً بنقل بعض المفتشين إلى موقع ناء في الصحراء، إنه لم يتمكن من الامتثال لطلب المتفش الأمريكي بالاستدارة والتحليق فوق منطقة محظورة أمنياً .. وأن المفتش، بعد ذلك، ضج غاضباً وطلب العودة إلى الأرض معتبراً ذلك الرفض خرقاً لعمل لجان التفتيش ثم عنّف المترجم العراقي لأنه لا ينقل إليه كل ما يتفوه به الطيار العراقي من كلمات..

إنهم لا يبحثون عن أسلحة محظورة .. إنهم جواسيس أمريكا.. هكذا قال العراق ..واشتعلت الأزمة من جديد .. قالت أمريكا إنها ستمنع المسؤولين العراقيين من السفر .. وقال العراق إنه سيطرد الأمريكان من لجان التفتيش ..وقال كاظم البغدادي وهو يقف في باب بيته باحثاً عن بائع النفط:

– خلصنا من إكيوس. إجانا بتلر.

ولما طال انتظاره لعربة النفط .. سأل يمامة وهو يراها تخرج من البيت:

– ألديكم ما يكفيكم من النفط؟

قالت له:

– نعم .. هل تحتاج إلى النفط؟

قال :

- ليس الآن .. ولكن ما الحكاية؟ .. هل ستطول هذه الأزمة؟

قالت يمامة :

- فككت بعض المصافي تحسباً لحدوث ضربة عسكرية.. وأصبحت منتجات النفط شحيحة ..

قال كَاظم البغدادي :

- تره صارت بلا ملح ..شنو القصة مجلس الأمن فاك[1] حلكَه[2] ويتفرج؟

شنو أمريكا صايرة إله مال العالم؟

قالت له :

- هذه لعنة النفط يا عم .

فرفع يده بعصبية وصاح بها :

- عمي ما تكَوليلي إحنا شقابضين من النفط؟ أشو كَضيت عمري كله بمراكز الشرطة وتالي ما تالي راتب فلوس 3 بيضات بالشهر ما يكفي ..

ثم استدار مدفوعاً بعصبية وصاح قائلاً قبل أن يصفق الباب ويدخل إلى البيت :

- يا معودة دروحي .. هيّه هاي اشتراكية.

---

(1) فاك : عامية عراقية بمعنى فاتح.

(2) حلكَه : عامية عراقية لحلقه بمعنى فمه.

نزلت يمامة إلى نهر الشارع بعد أن صفقت الباب هي الأخرى.. خطوة إلى الأمام .. ثم خطوتان .. ثم ثلاث .. وسمعت شهيقاً كالفحيح .. كأنه يخرج من صدر معلول بالربو. رفعت نظرها باتجاه صف من أشجار النبق مزروعة في مكانها خطأ على الرصيف .. سعال حشرجاته سبقته إلى باب البيت قبل أن يخرج منه مرتدياً بذلة سفاري رمادية اللون يعود موديلها إلى أيام السبعينات ومصففاً شعره الأسود الفاحم إلى الوراء بعد مسحه بزيت ثقيل خصلة رفيعة ساقطة من شعره إلى الأمام .. هذا كل ما لمحته يمامة من وجهه قبل أن تسرع خطاها باتجاه الشارع العام .. قلبها تسارعت نبضاته دونما سبب واضح .. سمعت خطواته تبتعد فالتفتت خائفة إلى الوراء وفي نفس اللحظة التفت هو أيضاً.. لم يتخذ وجهه أية سمة ولم تظفر نظراتها بشيء محدد أمامها ولكن أذنيها رددت لعدة ثوان طنيناً متصلاً منعها من سماع كاظم البغدادي وهو يناديها من مكانه في باب البيت:

– أي والله .. رحمة والديك.

التفتت إليه يمامة وعادت خطوتين إلى الوراء وقالت:

– ماذا؟

فقال كاظم البغدادي:

– إذا ما صادفت عربة النفط في طريقك فأرسليها إليّ.

قالت له وهي تشير إلى طوابير السيارات المصطفة قريباً من الشارع العام:

– ولكن محطة تعبئة البنزين قريبة ، لماذا لا تأخذ بطاقتك التموينية وتذهب إلى هناك فتحصل على قنينة غاز وخمسة ألتار من النفط بالسعر الرسمي.

قال وكأنه لم يسمعها:

– غيرة سيزية .. هذولة أهل النفط والغاز غيرة سيزية[1] ما يصدكَون تصير مصيبة .. حتى يلعبون بها لعب.

زوجته فائقة انضمت إلى المشهد فجأة وقالت من خلفه:

– شبيك د تصيّح من الصبح .. مو أنت عندك ضغط .. ما زين عليك عيني؟

فصاح بها وهو يلتفت إليها بعصبية:

– أنت والسم السقوطلي اللي تسويلياه ما موتوني .. أمريكا راح تموتني؟

جاء صوتها المتمهل من خلفه ثانية:

– شتريد أصبح عالغدة؟

فقال وهو يسحب خرطوم المياه من الحديقة ويرميه على الرصيف:

---

(1) غيره سز: عامية عراقية بمعنى عديم الغيرة.

– سم وزقنبوت . . .[1].

كلامها يخرج رهواً من فمها الرخو . . ثم عندما يصيب الكلام من زوجها مقتلاً . . تزداد هي رخاوة وبروداً ويزداد هو عصبية وهياجاً . . مليون مرة قال لها لاتضعي من الملح في طعامي إلا حبة . . ولكنها تسهو فتضع حبتين فيصبح الطعام « سم سقوطلي » ويضرب كاظم عن الأكل كما الأطفال الصغار، ويبقى صائماً اليوم كله يجيء أحد الأولاد إليه ويتوسل إليه أن يأكل شيئاً قبل أن ينام.

قالت فائقة من خلفه مرة ثالثة:

– ما كُلتلي . . شتريد أطبخلك على الغدة؟

رفع رأسه إلى السماء في محاولة أخيرة لفك الحصار الذي ضربته زوجته عليه وقال وهو يمسك ياقة قميصه بكلتا يديه ويشدّهما كالمجنون:

– ربِّ . . شوكت تأخذ أمانتك؟

فقالت له:

– أوي . . هاي سبيك . . كفرنا خوما كفرنا.

كان صوتهما يبتعد ويمامة تقطع الزقاق باتجاه الشارع العام ثم انعطفت للسير بموازاته بعيداً عن السيارات المصطفة في طابور طويل انتظاراً لمجيء دور كل واحدة منها في الوصول إلى المضخة

---

(1) زقنبوت: عامية عراقية تعني «طعام مقيت».

والعبّ من البنزين .. بعضها وقف في الطابور من الفجر .. والبعض وقف منذ منتصف الليلة الفائتة .. وعندما انعطفت .. أول ما انعطفت .. باتجاه اليمين..

رأته فجفلت ..وانتفض قلبها بقوة لأن زوج هنوة لم يكن قد غاب عن ذهنها بعد .. قالت له:

- أنت .

فقال مثنى:

- نعم.

قالت له:

– هل تراقبني أم ماذا؟ كلما خرجت وجدتك قبلي.

قال:

– بل كنت أنتظرك .. كنت واقفاً هنا ورأيتك تتحدثين مع أبي عمر فقلت أنتظرك هنا، وقد حدست أنك ستستعملين هذا الشارع بدلاً من الشارع العام المكتظ بالسيارات.

كان الشارع خالياً تقريباً إلا من بعض المارة. فسارا صامتين إلى مسافة قريبة، وكان مثنى يلتفت بين الحين والآخر وينظر إلى يمامة ملياً ولا يقول شيئاً.. ثم قال بعد أن قطعا نصف المسافة تقريباً:

– ها .. كيف أنت الآن؟

قالت له:

– بخير.

قال:

– هل أضايقك الآن.

قالت يمامة بحياد:

– كلا..

قال:

- هل لا زلت متضايقة بسبب حكاية التا . .

ولم يكمل الجملة . . إنما قال:

- كيف أعتذر عن ذلك الخطأ . .

قالت له:

- وهل ترى أنك بحاجة إلى الاعتذار؟

ثم التفتت إليه بحدة وقالت:

- والآن قل لي . . وقد توقفت أصوات الطرق . . ماذا كنتم تفعلون قبل ذلك؟

قال وهو يضحك:

- لقد أخبرتك؟

توقفت يمامة عن السير فجأة وتسمرت في مكانها . .وقبل أن تنطق بكلمة واحدة قال:

- حسن . . حسن . . كنت أمزح . . ذلك الطرق كان من أجل إعداد مخزن لقناني العسل التي نأتي بها من المنحل . .

قالت له وهي لا تزال تنظر إلى الموضوع بغرابة:

- والألواح الخشبية؟

قهقه عالياً حتى دمعت عيناه ثم قال:

- ما بها الألواح ؟

قالت:

– إنها كثيرة . ماذا تفعلون بها؟

أخذ يضحك .. فقالت تقاطعه:

– ماذا تفعلون بها؟

ضحك مرة أخرى ثم قال وهو يستدير:

– أنت جميلة جداً عندما تغضبين . ولولا ..

قالت تقاطعه مرة أخرى:

– والألواح؟

قال:

– حولناها إلى رفوف .. نضع عليها القناني ..

ثم انخرط في نوبة ضحك متواصلة أجلسته على الرصيف ..وراح يبكي من شدة الضحك .. ظلت صامتة ترنو إليه .. تحاول العثور على نبعة الريحان في وجهه .. منذ أن وضع الكتاب بينها وبينه ليحمي وجهها من الشمس .. وهي تحاول اقتفاء عطر تلك النبعة في عينيه فكيف ستعثر عليها الآن وهو يضحك كل هذا الضحك الجميل من أجل كذبة خرقاء ومزاح من أغرب ما يكون.

## -3-

دعته ليذهب معها إلى الندوة .. فوافق على الفور .. وعلى وجهه، الذي فرغ لتوه من الضحك، ولد شيء رقيق ولدن وطازج وكأنه تعبير مندهش لوجه طفل. لم تكن شمس الشتاء الطيبة قد سطعت بما فيه الكفاية .. وكان هدوء الشارع الذي يمشيان فيه يرتش ظلال الغيوم بسلام عميق يبدأ من القلب لينتشر في الحواس .. لم يعد مثنى مخطئاً ..ولم يعد للأزمة مع أمريكا من وجود لولا ذلك الطابور الطويل من السيارات المصطفة باتجاه محطة البنزين بانتظار أن يأتي دورها للتزود بما حدد لكل سيارة من لترات. ولكن الفزع سرعان ما تملكها مرة أخرى حين سألها مثنى:

- هل ستبقون في بغداد؟

لم يعد أحد يسأل مثل هذا السؤال أو يبالي به .. أحدثت الضربة أم لم تحدث .. استعملوا فيها أسلحة محللة أم أسلحة محرمة .. قصفوا من السماء أم من الأرض أم من البحر .. فزع الناس من ذلك مرة واحدة في عام الفيل فحنتهم تلك الضربة بمصل ثلاثي مضاد للخوف والمبالاة والأمل.. ولم يعودوا بعدها يبالون بشيء أو يخافون من شيء أو يعقدون الأمل على شيء .. قالت له:

- نعم ولماذا لا نبقى في بغداد؟!

انطلقت آهات كاظم الساهر من مذياع بيت قريب .. ولا تدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة أنها في طفولتها قد ذهبت في رحلة مدرسية إلى حديقة الحيوان في الزوراء ، فلما وصلت

جسر المشاة وعبرته مع الطالبات إلى ضفة الشارع الأخرى اعتقدت أن الرحلة قد انتهت:

قال:

- إن الندوات تقتلني .. ولكن معك ..

وعبّر بفمه ضاحكاً عن تلمظ بأكلة لذيذة.

كان المحاضر يقتبس مقطعاً من كتاب «بنية العقل العربي» لمحمد عابد الجابري يقول فيه:

«قبل أن نشغل أنفسنا بالبرهان يجب أن نبحث أولاً عن حقيقة السلوجسموس الخالص البسيط، والسلوجسموس الخالص البسيط هو، كما يدل ذلك على اسمه، شيء مؤلف. فيجب البدء إذن بمعرفة من أي العناصر يتألف. وهذه العناصر هي القضايا. والقضايا تتألف من موضوعات ومحمولات، والموضوعات والمحمولات (بمعنى المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل) عناصر مفردة، وإذن يجب البدء بالعناصر المفردة التي من اجتماعها تتكون القضية (الجملة الخبرية اسمية كانت أو فعلية)، وهذه العناصر هي المفاهيم أو المقولات، وعلى هذا فالمقولات هي أمور مسندة أو مقولة على موضوعٍ. وباصطلاح المناطقة «المقولة معنى كلي يمكن أن يدخل محمولاً في قضية»، وإذن فالمقولات ليست مجرد ألفاظ، بل هي مفاهيم تدل على خصائص وتحديدات واقعية وموضوعية للأشياء بوصفها أشياء توجد قبل أن يمارس الذهن فعاليته، فهي إذن ليست قوالب ذهنية، كما كانت، بل هي خصائص الواقع وقد استخلصها أرسطو تجريبياً، وذلك

بتصنيف معطيات الواقع الموضوعي إلى جواهر وأعراض.

والمقولات كما عدّها أرسطو عشر: واحدة جوهر والتسع الباقيات أعراض والعرض ليس من مكونات المفهوم بل من مكونات الماهية».

قال مثنى هامساً:

- جدتي اسمها ماهية.

كتمت يمامة ضحكتها وقالت:

- اش ... اش...

قال بحد:

- فعلاً جدتي اسمها ماهية .. وأنا عطشان.

قالت:

- ماذا؟

قال:

- لقد عطشت.

سحبته إلى خارج القاعة وقالت له:

- هل نحن في الصحراء!؟

قال وهو يبتسم:

- هكذا أنا .. أعطش كثيراً. وتلك القاعة صحراء فعلاً.

تململت يمامة تبحث عن حنفية ماء .. ثم قالت بعصبية:

- أنت عجيب يا أخي.

مخاطبتها إياه بصفة الأخ كأنما ذكرته بأمر ما فقال على الفور:

- أتعرفين؟ يمكن أن تكوني أختي فعلاً..

آهات كاظم الساهر التي كانت تتردد في أذنها حتى تلك اللحظة .. صمتت فجأة وحل محلها فزع كبير .. قالت له:

- ماذا؟

قال رافعاً حاجبيه وكأنه يستسلم لأمر يجب أن يقال:

- أرضعتني ثلاثون امرأة .. أمي تقول إني كنت شرهاً جداً .. وما كانت تتركني وتذهب إلى الحقل حتى أبدأ بالصراخ طلباً للحليب .. ولا أكف عن ذلك حتى تقدم لي إحدى نساء القرية ثديها .. ها؟ ما رأيك؟ ألا يمكن أن تكون أمك واحدة من النساء اللواتي أرضعنني فتكونين أختي بالرضاعة.

قالت له:

- هل قلت إنك من قرية اسمها زلزل؟

قال:

- نعم.

قالت له:

- ماذا تفعل أمي إذن في قريتكم .. لكي ترضعك؟

قال وهو يرفع حاجبيه من جديد :

- قد تكون مرت من هناك بالصدفة وهي في طريقها إلى واسط أو بابل أو الكوفة .. فتعطلت بها السيارة واضطرت إلى المبيت عندنا .. في بيتنا مثلاً أو في بيت الجيران .. وفي الصباح سمعتني وأنا أبكي .. فأشفقت عليّ وأرضعتني.

هل هذا رجل عجيب فعلاً .. أم أنه يفتعل العجب.. قال جاداً:

- هل لك أخ بمثل عمري؟

لم تعد يمامة تمتلك حتى الفراغ .. أصبح رأسها في مرجل يغلي .. قالت له بعصبية:

-لا .. أنا أصغر أختي .. وهذه المرة إن زعلت فلن ترى وجهي مرة أخرى.

قال وهو يفتح عينيه باتساع :

- ولكنني أتحدث جاداً هذه المرة .. لقد أرضعتني ثلاثون امرأة.. أو ليس هناك احتمال واحد بالمليون أن تكون أمك واحدة من أولئك النسوة.

واحد بالمليون .. واحد بالترليون .. واحد بالمليار.. ما شأني أنا بهذا الاحتمال؟ قالت يمامة، ثم وجدت نفسها تسأله:

- بأي سنة ولدت؟

قال وهو يضحك هذه المرة:

- بربك .. ألا أصلح لتأليف مسلسلات على غرار المسلسلات المدبلجة؟

قالت له:

- بل أنت لا تصلح لأي شيء..

ولم يكن من المناسب دخول القاعة ثانية .. فخرجا منها ببطء بعيدين كل البعد عن بعضهما البعض. وعندما وصلا إلى بوابة المبنى رأته يرمي عقب سيكارته إلى الأرض .. فعل ذلك وهو يبتسم راضياً كالأطفال.. فاستأذنت يمامة وقالت:

- أريد أن أعود إلى الندوة ..

أراد أن يقول لها شيئاً .. ولكنها قاطعته وقالت:

- مع السلامة.

# طبق الأمس

## -1-

حملت أشجان الفانوس الصغير إلى يمامة وجنان، ثم عادت إلى الحديقة ولم يكن الضوء شحيحاً في غرفة المعيشة بعد .. والستائر المسحوبة عن النافذة قد سمحت لوهج الشمس الغاربة بأن يغمر تلك الغرفة الجنوبية الواسعة من البيت، بضياء يوحي بأن الجو صباحي في يوم شتائي سماؤه ملبدة بالغيوم، أكثر مما يوحي بأن الشمس الغاربة تلملم آخر ذيول فستانها الضوئي الشاسع وتسحبها خلفها قبل أن تهبط ببطء الأميرات إلى مكان آخر من الأرض.

قالت أشجان قبل أن تعود إلى الحديقة:

- هل نامت جدتي.

فأجابت جنان:

- نعم .. شربت الدواء ونامت.

دخلت أفنان خلفها والمندر في يدها وقالت:

- ألا تزال الكهرباء مقطوعة؟

قالت جنان:

-نعم.

فاستدارت أفنان إلى أشجان وقالت لها:

- هيا إذن نكمل شغلنا في الضوء.

ثم التفتت إلى يمامة وقالت:

- الدنيا لا تزال مضيئة في الخارج .. لماذا تجلسان هنا في الظلام.

قالت لها جنان:

- سنأتي بعد قليل.

ثم قدمت كومة الملابس إلى يمينها على الأريكة.. وراحت تطويها واحدة بعد الأخرى ثم تضعها على الجانب الآخر من الأريكة. قالت:

- بلا كهرباء .. لن أتمكن من الذهاب إلى العيادة هذا اليوم.. فسخان الماء لا يعمل والمكواة لا تعمل .. والمجفف لا يعمل.

نشرت أحد القمصان على فخذيها فطارت منه فراشة برية رمادية اللون أجنحتها ترف بسرعة كبيرة وتصطدم أثناء الطيران الأهوج بكل جسم يعترض طريقها.

قالت لها الخالة ذات يوم:

- كيف تترددين على بيت البنات؟ هؤلاء موسيقاهم ورقصهم حتى الصباح كل يوم .. طبعاً الأب ميت والأم تركت بناتها وذهبت لتتزوج، ماذا يتوقع الإنسان من مثل هذا البيت .. هناك لغط كثير حوله وأنا لا أحب الشيوعيين.

قالت لها يمامة:

- لا تكوني قاسية على البشر يا خالتي لمجرد أنهم لا يشبهونك.

قالت الخالة:

- وهل بيت أم مريم يشبهونني .. إنهم مسيحيون ونحن مسلمون ولكني أحبهم وأزورهم أكثر من باقي البيوت.

قالت يمامة:

- ألا يكفي جنان والتزامها تجاه جمال .. إنها تنتظره منذ عشر سنوات بالرغم من أنه لم يكن خطيبها .. كانت تحبه وحسب.

قالت الخالة:

- وهذا أيضاً لا يعجبني .. فيه كثير من المبالغة..

والآن .. لم يعد ثمة رقص أو موسيقى أو لغط في هذا البيت الذي تسميه الخالة ببيت البنات .. وعندما تنشغل أختا جنان المراهقتان بعمل يتطلب الصمت يصبح الهدوء موحشاً في هذا البيت ويبعث على الرهبة ..الفراشة البرية استقرت في مكان ما من غرفة المعيشة الغارقة في الظلام .. وأختا جنان لا زالتا تتجملان بآخر ماتبقى من ضياء الشمس في الحديقة.

قالت يمامة:

- هل هناك أخبار جديدة عن جمال؟

قالت جنان وهي تضغط على القميص الذي طوته للتو ورتبته بإتقان:

- لا شيء جديد .. آخر رسالة كما تعلمين بعثها لأهله كانت منذ سنتين.

قالت يمامة:

– المهم أنه لا يزال على قيد الحياة .. وأنه سيعود.. ما دمت تنتظرينه فإنه سيعود.

قالت جنان وهي تتنهد:

– ليس الذي ما يزال يعيش ويفرّش أسنانه ويحلق ذقنه وينام في فراشه مثل الذي يعيش في عذاب الأسر.

قالت يمامة:

– إنه يعيش من أجل لحظة ستكون باهرة الجمال .. عندما يعود إليك ستعرفين فرحة لم يعرفها أحد قبلك ولن يعرفها أحد بعدك.

ضحكت جنان بفرح وكأنها تتلذذ منذ اللحظة بتلك الفرحة وأنها متأكدة بأنها ستحدث. قالت وقد انتابها حماس مفاجئ:

– المكان مظلم جداً هنا .. هيا نخرج إلى الحديقة ..

قالت لها يمامة:

– أحقاً لن تذهبي إلى العيادة هذا اليوم؟

قالت جنان:

– كلا .. يجب أن أذهب .. ما شأن المرضى وانقطاع الكهرباء في منزلي ثم أشارت إلى كومة الملابس وقالت:

– ولكن كل ملابسي تحتاج إلى كوي .. وشعري هائج..

قالت يمامة:

- أهكذا تستعبدنا الحضارة؟

قالت جنان:

- أعرفك .. لا تحبين الكمبيوترات والستالايتات والهواتف الخلوية.

قالت يمامة:

- أوف .. أكرهها عن بعد.

قالت جنان وهي ترفع فانوسها الصغير:

- أهكذا أفضل إذن؟ .. الناس في كل العالم يحملون الهواتف الخلوية وهم يسيرون .. ونحن نعيش عصر الشموع والفوانيس.

## -2-

شقشق الفجر والنوم بعيد .. خرجت يمامة إلى الحديقة تتمشى بعد أن تقلبت في فراشها خمس ساعات طلباً للنوم ولكن دون جدوى. قطة رأتها ولم تبال، وظلت تنادي وتموء بصوت جريح يشبه نواح امرأة في عزاء رجل. وجدت نفسها تقف خلف باب المرآب وتتطلع من خصاصها إلى الزقاق الخالي وهو يتمدد نائماً بانتظار الصباح. عصافير تزقزق .. ورائحة جوري .. وصوت باب يفتح .. وسعال. اختلست النظر مرة أخرى من خلف الباب فرأت باب بيت هنوة يفتح وتخرج منه لمياء تمشي مشيتها الخافرة ثم تمضي إلى بيت موفق أخيها دون أن تلتفت أو تبالي بشيء..

لمياء؟ ماذا تفعل في بيت هنوة في هذا الوقت المبكر من الصباح..؟ هل تبحث عن قطة جائعة أو هر هارب؟ .. أم أنها تبحث عن شيء آخر؟

لبثت يمامة خلف الباب تراقبها حتى توارت خلف باب أخيها. قطعت أنفاسها ..ثم التفتت بعينها مرة أخرى إلى باب بيت هنوة.. هنيهات .. وظهر زوج هنوة من البيت ووقف قرب الباب وأخذ يتلفت حتى إذا ما تأكد أنه لا أحد يوجد في الزقاق مضى داخلاً وأقفل الباب خلفه. بعد أن رأت وتنفست وعاد كل شيء إلى ما كان عليه، شكت يمامة أصلاً من أنها رأت ذلك المشهد .. لشدة غرابته ..وعندما أصبحت الأبواب مقفلة، وعم الصمت من

جديد وجدت أنه لا سبيل للتأكد مما رأته قبل قليل، إلا برؤيته يحدث مرة ثانية.. فها هو شيء مر أمام عينيها مرور الكرام والناس نيام، فهل يكفي أن يراه واحد منهم فقط، لأنه مستيقظ، .. هل يكفي هذا للتأكد والبت في أن هذا الشيء قد حدث فعلاً ..
كان زوج هنوة يمسك طرف دشداشته الرصاصية بيده اليمنى ويرفعها قليلاً إلى أعلى فتظهر ربلة ساقه ملساء بيضاء وكأنها بطن أفعى. فكرت يمامة أن هذا الرجل به أنوثة وميوعة وأنه ليس فيه ما يغري امرأة على الافتتان به أو الوقوع في غرامه .. ثم عادت وتذكرت قصة رواها عنه كاظم البغدادي بعد أن سكن هذا البيت الذي تزوج فيه الخالة هنوة.. إذ قال أن له ابنة عم كان يحبها جداً ولكن عمه رفض تزويجها له وزوجها لآخر ثري وكبير في السن.. وأنه لهذا السبب ترك أهله وانتقم منهم بأن أخرج راقصة من الملهى وتزوجها .. قال كاظم أيضاً أنه كان يزور ابنة عمه تلك بين حين وآخر، زيارات سرية لا يعلم بها أحد . وأن زوجها لو كان علم بأمر تلك الزيارات لقتله وقتلها .. تلك قصة لم يتداولها أحد ممن سمعها كثيراً، لأنه ببساطة لم يصدقها .. وعندما يسمع المرء قصة ولا يصدقها فإنه يقف بينها وبين انتشارها كالجدار الأصم فتنتهي قبل أن تبدأ .. ويطويها النسيان قبل أن يتذكرها أحد ولم تكن غرابة تلك القصة هي التي صنعت ذلك الجدار .. فهي تكاد أن تكون قصة مألوفة بين قصص الحب والهيام في كل مكان وزمان .. وإنما أن تنسب تلك القصة إلى تحسين زوج هنوة صاحب الوجه الخالي من أي تعبير عن الحماسة أو الفرح أو الحزن أو السذاجة أو الصرامة أو التشاؤم أو التفاؤل أو اليأس أو الأمل ..

أن تنسب تلك القصة للرجل الذي يشبه سكان الجزيرة المستقبلية التي تذهب إليهم آلة الزمن فتجدهم بلا مشاعر ولا عواطف ولا حماسات .. فهذا ما كان باعثاً على سخرية الآخرين أو على الأقل لم يكن مستساغاً لهم. أما بالنسبة ليمامة فلم يكن عصياً على التصديق ولا باعثاً على السخرية وفي ذلك اليوم نفسه الذي رأت فيه لمياء وهي تخرج فجراً من بيت زوج هنوة، كانت يمامة تقف في المطبخ لتعد شاي العصر مع شرائح الجبن الأبيض لها ولخالتها، فقرع جرس الباب وذهبت خالتها لتفتحه .. وبعد قليل جاءتها وهي منفعلة وقالت لها بضيق:

– الآن اكتملت ..تعالي وأنظري من عندنا؟

قالت يمامة:

– من؟

قالت:

– واحدة الله يستر عليها وعلينا .. تقول إنها ابنة هنوة.

قالت يمامة وهي تتوقف عن تقطيع الجبن:

– من ؟

قالت الخالة:

– تعالي وشوفي بنفسك..

في الصالة كانت ..امرأة جميلة في الثلاثينات من عمرها .. شعرها مصبوغ بلون فاقع .. وملابسها تجاري الموضة السائدة في

قصرها وضيقها على الجسم ولكنها من النوع الرخيص .. قالت لَها يمامة:

- مساء الخير.

فردّت على يمامة بطريقة ملتوية كأنها تعرفها ومنزعجة منها:

- مساء الخير.

ثم تنهدت وصمتت. وسألتها يمامة:

- الاسم الكريم.

قالت :

- حياة.

قالت يمامة:

- هل أنت ابنة الخالة هنوة؟

ولم يكن لسؤالها ثمة داعٍ سوى فتح أبواب الحديث.. فقد كان الشبه بينها وبين أمها كبيراً ..نفس الوجه الجميل.. والفم الصغير .. والعينين الضاحكتين، إلا أن الخالة هنوة كانت قصيرة القامة وهذه امرأة طويلة ناهضة الرأس بجسم وافر الأنوثة.

قالت:

- نعم.

قالت يمامة:

- لم نعرف للخالة هنوة ابنة؟

قالت:

- هذه قصة طويلة ..هل تريدان سماعها؟

قالت الخالة بفضول:

- طبعاً .. تحدثي ..

قالت:

- ولكن قبل أن أرويها لكما .. أين هو بيت أمي؟!

قالت يمامة:

- البيت الذي يقابلنا تماماً. ألا تعرفينه؟

قالت:

- كلا .. ولا أعرف كيف جاءت إلى هنا ..لقد كنت مارة هذا الصباح من الشارع العام في طريقي إلى أبي غريب لزيارة أبي في السجن.. وقد شاءت الصدفة أن ينزل أحد الركاب في موقع على الشارع قريب من ساحة الأردن .. وبينما هو ينزل لفت نظري اللافتة السوداء الموضوعة على جدار البيت الركني هناك .. وعندما قرأت الاسم وجدته اسم أمي. وهو الاسم الثلاثي نفسه.. إضافة إلى الاسم الأول الذي لا يمكن أن يكون إلا اسمها.

شهقت الخالة وقالت:

- يا لها من صدفة عجيبة! .. هل تقصدين أنك لولا اللافتة ما عرفت مكان أمك؟ .. وأنك قد عرفت بموتها للتو؟ .. من تلك اللافتة؟

قالت :

– كنت أعتقدها ميتة منذ زمان .. هذا إذا كانت فعلاً هي أمي .. فجدتي التي ربتني كانت تقول لي دائماً إنها لو كانت على قيد الحياة لبحثت عنك، ولوجدتك.

قالت يمامة :

– يبدو من الشبه الكبير بينكما .. أنها فعلاً أمك.

قالت وهي ترنو إلى عيني يمامة بلهفة:

– حقاً؟

ثم دمعت عيناها .. وراحت تبكي بشكل مفاجئ وكأنها عرفت بخبر موت أمها للتو.

قالت الخالة فجأة وبلهجة فيها عداء:

– ولكن الست هنوة لم تكن تنجب.

نهضت يمامة وجلبت قدح ماء للضيفة التي تبكي .. وبعد أن هدأت قالت يمامة لخالتها:

– لم تكن تنجب من زوجها الأغبر هذا .. ولكنها قد أنجبت من رجل آخر .. ألا تلاحظي الشبه التام بينهما .. إنهما نسختان من بعضهما البعض.

وجدت الخالة الفرصة ملائمة للتأكد من الشائعات التي أحاطت بهنوة وقت وصلوها إلى الزقاق والتي تقول بأن تحسين قد أخرجها من الملهى وتزوجها:

– ماذا كانت تعمل أمك قبل أن تتزوج من تحسين؟

لم يبد على وجه حياة أيما تعبير .. إنما قالت وقد دمعت عيناها من جديد :

– أن لا أكاد أذكر شيئاً من طفولتي معها سوى حادثة القطار . لا أعرف على وجه الدقة إن كانت هي التي روتها لي أم جدتي أم أنني أنا التي شاهدتها بأم عيني . فقد كنا أنا وإياها وأبي عائدين من البصرة بالقطار . وعند الفجر تقريباً وقف القطار في الحلة فقال أبي إنه نازل إلى المحطة ليذهب إلى الحمام . .وبعد عدة دقائق من نزوله قلقت أمي عليه وخافت أن يتحرك القطار ولا يعود أبي .. ولكن القطار تأخر . .وأبي أيضاً تأخر . . وعندما تحرك القطار من جديد وجدناه يلوح لنا من الرصيف وكأنه يودعنا إلى الأبد .. وكما قلت كلما .. لا أدري إن كنت قد رأيت هذا المشهد بالفعل أم تخيلت أني رأيته لكثرة ما رددته أمي بعد ذلك للرائح والغادي. . قالت للجميع أن زوجها هرب منها ومني واستنزلت كل لعنات العالم عليه .. ولم تمضِ فترة طويلة على غيابه حتى عد مفقوداً فطلقته غيابياً ثم تزوجت رجلاً آخر وتركتني مع أم أبي لتربيني .. بعد ذلك لم تظهر أمي أبداً، ولكن أبي ظهر بعد عدة سنوات وأخذ يزورنا بين الحين والآخر .. حتى ألقي القبض عليه في حادث سطو مسلح وحكم عليه بخمس عشرة سنة في السجن .. لم يتبقَ له منها سوى سنة واحدة .

قالت الخالة بذهول :

– هذه قصة أغرب من الخيال .. ولكن كيف حدث أن لا تزورك أمك أبداً أو أن لا تدلك على بيتها لتزوريها؟ .. كانت امرأة طيبة رحمها الله، فكيف ترمي فلذة كبدها؟

قالت ابنة هنوة:

- لا أعرف .. أنا أيضاً أستغرب ذلك .

قالت يمامة:

- لربما خائفة من شيء ما؟

قالت ابنة هنوة ودموعها تنزل من جديد:

- لا يمكن لأي شيء أن يمنع أماً من أن ترى ابنتها الوحيدة .. أنا حزينة الآن لأنها كانت موجودة طيلة هذه السنين، دون أن تهتم بأن تراني. كنت أعتقدها ميتة، وكان ذلك يؤلمني .. والآن يؤلمني أكثر معرفتي أنها كانت على قيد الحياة.

تنهدت الخالة بحزن وقالت:

- والله حقك يا ابنتي .. والآن ماذا ستفعلين؟

قالت الابنة:

- أريد أن أرى بيتها، من يعيش فيه الآن؟

قالت يمامة:

- زوجها فقط.

قالت الابنة وهي تنهض:

- هلا أخذتني إليه؟

قالت يمامة:

- تأتين معنا يا خالة.

## -3-

هب الهـواء عـاليـاً في ليلة القـدر، هاجت الرياح تـهـز سـعف النخيل وتدك أعـمـدة الكهـرباء دكاً يوحي بأن يداً خـفـيـة تهـزها. سألت يمامة خالتها إن كانت هي الملائكة تنزل من السماء وتتجول بينهم فاقشعر بدن الخالة من التأثر وذهبت إلى الحمام لكي تتوضأ ثم تقرأ القرآن.

قالت بعد التوضؤ:

- من يقرأ سورة القدر ألف مرة ثم يطلب شيئاً من الله يحققه له.

قالت يمامة:

- ماذا ستطلبين؟

قالت الخالة:

- أن يرفع الله هذه الغمة عن أهل العراق.

قـرع الجـرس وذهبت يمامـة لتـفـتـحـه فـوجـدت زوجـة كـاظم البغدادي وهي تحمل أرغفة من الخبز المعجونة بالسـمسـم تفوح منه رائحة طيبة وساخنة ملأت المكان.

قالت يمامة:

- تفضلي أم عمر..

قالت زوجة كاظم البغدادي:

- لا شكراً .. أبو عمر مريض .. وبعدني ليهسة ما سويت فطور.

قالت يمامة:

- ما به؟

قالت أم عمر:

- موكف نفسه بالدوايات .. والصبح تعارك ويه أبو النفط.. يكوله أنت أشوتجي ديْ وتروح.. هسه هم ضغطه مرتفع وراسه يوجعه.

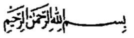
قالت يمامة:

- عنده العافية.

قالت أم عمر:

- سلمي لي على خالتك.

ثم مضت تلاحقها إيلاف قريش التي تقرأها على عجين الخبز كلما نفضت يدها وتركته لكي يختمر .. أكدت لها خالة يمامة أكثر من مرة أن قراءة هذه السورة على أي زاد أو إدم يجعل البركة تحل فيه فيزداد ويكفي أود الجميع حتى وإن كان لا يسد الرمق .. ثم جعلتها أم عمر تحفظها لكثرة ما سمعتها:




﴿ **لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف***

**فليعبدوا رب هذا البيت* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴿**

صدق الله العظيم

دخلت يمامة إلى البيت وأشعلت النيون فتشوش صوت الراديو وطقطق متراقصاً لحين توهج الضوء بشكل مستقر. قالت لها خالتها:

– من؟

قالت يمامة:

– إنها أم عمر .. جاءت بأرغفة من الخبز بالسمسم.

قالت خالتها:

– زاد خيرها .. أحب خبزها كثيراً . لِمَ لَم تدخل؟

قالت يمامة:

– إنها مستعجلة ..تقول إن أبا عمر مريض.

قالت الخالة:

– هذا أبو عمر فد واحد لوثة .. يتعارك مع الرايح والجاي.

قالت يمامة:

– هذا هو حال أبي عمر منذ أن رأيته ورآني .. إن لم يجد أحداً يتعارك معه تعارك مع نفسه.

نهضت الخالة وخفضت الراديو ثم قالت:

– طبخت لك هريسة هذا اليوم.

ثم أردفت:

– فهات من سناء قليلاً من الدارسين[1].

ودخلت إلى غرفتها لتقرأ القرآن حتى موعد الإفطار جميلة ضاحكة الوجه يزيد الوشاح الأسود الذي تضعه على رأسها دائماً وجهها جمالاً واستدارة .. تجيد الهريسة وأكثر أطباق الطعام حاجة للصبر والجهد .. وتقضي أغلب وقتها في تسلق جدران البيت ونوافذه من أجل تنظيفها والحفاظ عليها لاهثة بالبريق، هذا البيت الذي بقي إرثاً معلقاً منذ سنوات ليس لأنه لا يحق لأحد بيعه أو التصرف به لحين مجيء الورثة الآخرين بأنفسهم للمثول أمام السجل العقاري، ولكن لأن لا أحد يريد بيعه أو التصرف به، لا يمامة ولا أخواها المهاجران اللذان كلما جاءت من أحدهما رسالة أوصى في خاتمتها بشأن من شؤون البيت تعلق به وأحبه ذات يوم .. فأوصى أسامة بالحفاظ على جهاز التسجيل ذي البكرات الجبارة مقيماً أبد الدهر في البيت، وأوصى قدامة على عثاكل من النخلة البرحية[2] ذات الصيت الذائع بمذاقها الفريد، يُحمل إليه طوال الطريق من بغداد إلى عمان ثم من هناك إلى صنعاء جواً. أما السُنْكَر[3] ذات الرجلين فهي أقدم ما بقي من ممتلكات أمهم في هذا البيت...

---

(1) الدارسين: القرفة

(2) البرحية: نوع من أنواع التمر العراقي.

(3) سُنكَر: ماركة لماكنة خياطة .

وعندما تفتح يمامة جرارها الصغير المعلق تحت لوح الخياطة من جهة اليسار تطالعها البكرات الملونة نفسها التي كانت موجودة في ذلك الجرار منذ عقود مضت دائماً كانت موجودة في مكانها.. ودائماً بالألوان نفسها ودائماً كانت تريد أن تقول لخالتها، منذ أن جاءت للسكن معها بعد رحيل الجميع، ألا تستعملها لكي تبقى ولا تنفد خيوطها؟! ولكنها كانت تنسى دائماً ولاتطلب منها ذلك فتفعله خالتها من تلقاء نفسها وتترك محتويات ذلك الجرار على حالها دون أن تعرف يمامة السبب الحقيقي الذي يدفعها لذلك .. وقفت قبل أشهر في مدخل غرفتها تتأمل ما رسمته يمامة في روزنامة الأحلام ثم أبدت دهشتها من بعض التفاصيل ودعت يمامة إلى مسحها واستبدالها بتفاصيل أخرى .. ثم راحت تنظر إلى الوجوه الكثيرة المرسومة في دوائر متقاربة ومتداخلة ومغبشة الملامح .. بعضها لفنانين وبعضها لرؤساء وملوك .. وبعضها لنجوم أفلت وأخرى لا زالت ذات شأن.. فضحكت ثم قالت:

– لوحتك هذه أصعب من لفّ الدولمة!

ولم تستنكر من يمامة أن ترسم شيوعياً في لوحة من لوحاتها أو تحثها على استبدال وجه بوجه آخر داخل غابة الوجوه الكثيرة التي ضمتها تلك اللوحة، بل وقفت تتأمل الصورة طويلاً .. طويلا جداً ثم قالت وعيناها ترنوان إلى وجه عبد الكريم قاسم:

– ليرحمه الله .. لم ترينه وهو ميت على شاشة التلفزيون.

فقد ولدتك أمك بعد ذلك اليوم بثلاثة شهور .. أو أربعة .. لا أتذكر.

قالت يمامة:

- ولكني رأيت تلك الصورة منشورة في كتاب فآلمتني جداً.

قالت الخالة:

- وآلمتنا جميعاً .. كرامة الإنسان يا بنتي يجب أن تحفظ في حياته .. وبعد موته.

ثم وهي تتنهد:

- كان يجلس على كرسي مرتدياً قميصاً خالياً لا يبدو ملائماً لبرد الشتاء .. وثمة جندي هزيل الجسم يقف وراءه أراد إظهار وجه الزعيم الميت أمام الكاميرا فشد الرأس بقبضة خشنة من شعره وشمره إلى الخلف ليظهر الوجه بوضوح على شاشة التلفزيون. أخوك أسامة كان صغيراً حين ذاك.. وبعد أيام كان جالساً مع أهلك إلى طعام الفطور فسأل أباك فجأة:

- بابا .. هذا الضابط الذي مات في التلفزيون هل كان صائماً؟

فقال أبوك:

- نعم بابا كان صائماً .. كلاهما كان صائماً. القاتل والمقتول.

فقال له أسامة:

- إذن .. عندما أكبر فلن أصوم.

منذ ثلاثين عاماً وأكثر .. وفي مثل هذا الوقت من الغروب .. وفي المكان نفسه الذي تقف يمامة فيه الآن قرب ماكنة الخياطة. كان للمدفع شأن .. ووقت.. وطعم .. ورائحة .. كانت له جمهرة من القلوب تنتظره وتنصب مائدة الطعام على الأرض لأجله .. كانت له رائحة تمر هندي وقمر دين ولبن رائب وحلوى شعرية وحساء عدس وتشريب. كان له أم وأب وأخوة لا يبرحون المطبخ إلا ليعودوا إليه وقد انفتحت شهيتهم للطعام فتسمع أصوات أغطية ترفع وقدور توضع. كان له ما كان .. ولم يتبقَ منه الآن إلا هبة ريح تشتدّ في الخارج صافعة بأيديها زجاج النوافذ وسعف النخيل وأعمدة الكهرباء.

تقطع الضوء أكثر من مرة منذراً بالإنطفاء .. فأخذت يمامة الفانوس النفطي من فوق ماكنة الخياطة وأشعلته ووضعته فوق الثلاجة ثم أطفأت النار تحت قدر الهريسة وذهبت إلى خالتها لتوقظها من النوم.

# -4-

استغرب أهل الزقاق كيف تسكن حياة مع زوج أمها في بيت واحد .. وتحاشى الجميع حتى إلقاء التحية عليها، وعندما وجدت نفسها معزولة عنهم جاءت إلى يمامة وقالت دون أن يطلب منها حد ذلك:

– أنا أسكن في الطابق العلوي بعد أن حولته إلى شقة منعزلة وأغلقت سلمها الداخلي بباب .. وأدخل وخرج إليها من سلم حلزوني خارجي متصل بالسطح.

قالت خالة يمامة بضيق:

– ولكن كان يمكنك أن تنتظري في المكان الذي تقيمين فيه مع جدتك، لحين أن يضمن لك القسام الشرعي حقك في الميراث.

قالت:

– هذا البيت باسم أمي كما أنها اشترته من فلوسها على الأكثر، فإن تركته يوماً واحداً لا أضمن ما سيفعله زوجها لإنكار حقي عليّ.

ثم صمتت قليلاً:

– جدتي تقول أن أمي كانت تملك ذهباً كثيراً قبل أن تتزوج.. وعندما سألت زوجها عنه أنكره تماماً.

صبغة شعرها كانت فاتحة. ولما وجدت أن يمامة وخالتها لا يردان عليها قالت:

- أنا أنتظر أن يخرج أبي من السجن بعد أشهر.. لأنهي هذا الموضوع وأخلص منه .. فهو الذي أشار عليّ بذلك وقال إنه من المحتمل أن يتمكن من شراء حصة زوج أمي في البيت فيصبح البيت ملكاً لنا.

لم تعلق الخالة ولكن نظرتها علقت بدلاً عنها وقالت دون كلام:

- اكتملت .. لم يبق علينا إلا خريجو السجون.

ساءت حالة الصمت بين الثلاثة بعد أن لم تجد ابنة هنوة ما تقوله، ولم تجد يمامة وخالتها كلاماً تردان به عليها .. فاستأذنت منهما وقالت بأدب مفتعل:

- لا أريد أن أسبب الأذى والإحراج لأحد ولكن لي حق في هذا البيت ويجب أن أحافظ عليه. ومرة أخرى لم يرد عليها أحد.. وشيعتها يمامة لوحدها إلى باب البيت صامتة لا تعول على شيء سوى انصرافها ومغادرتها له بسرعة .. وكأنها قد حدست ذلك من يمامة فسرى بينهما تيار خفي من الكره أو النفور أو عدم الارتياح .. ألقت عليها تحية وداع مقتضبة .. وحادة .. إن لم تكن عدائية .. فأغلقت يمامة الباب خلفها ولسبب ما .. لاتعرفه.. بقيت تنظر عبر خصاصها إلى الشارع لحين عبرته حياة باتجاه بيت هنوة .. التفتت حياة إلى جهة اليسار وكأنها تنظر إلى

شخص ما فنظرت يمامة إلى حيث تنظر لتجد مثنى قادماً من بعيد.. تركتها على الفور وراحت تنظر إليه .. ولم يكن في تلك اللحظة عارفاً بوجودها خلف الباب .. ولا حياة أيضاً .. فرأته في اللحظة التي أصبح فيها قريباً من حياة .. يرفع بصره إليها وينظر إليها ملياً .. نظرة طويلة ومتفحصة . وخبيرة، لم تملك يمامة أن تستغربها من رجل مثل مثنى تقع عينه على امرأة مثل حياة.. ولكن ما استغربته هو أنه بعد أن نظر إلى حياة تلك النظرة الصائدة الطويلة حوّل بصره فوراً باتجاه باب بيت يمامة وكأنه يريد التأكد من أن واحدة مثلها لم تره ولن تراه، كانت النظرة الثانية إلى باب بيت يمامة، وليست النظرة الأولى إلى قوام حياة، هي التي أثارت استغرابها ثم شكّها ثم تساؤلها: لماذا يشعر بالخوف من أن تضبطه يمامة متلبساً بالنظر إلى حياة؟

ظل ينظر إلى الباب وكأنه حدس بوجود أحد ما خلفه ينظر إليه.. وكان من الغريب حقاً أن توحي نظرته المصوبة نحو الباب أنه أحسّ بوجود يمامة وعرف به .. وعندما التقت نظراتهما عبر الفتحة الضيقة التي لا يمكن أن يراها أو يشعر بوجودها أحد ما خلفها، جفلت يمامة في مكانها، فغضّ بصره على الفور وكأنه قد تأكد من وجودها هناك .. أيكون ذلك محض صدفة؟.. أم أنه يكون قد رأى بقلبه شيئاً لا يمكن أن يراه بعينية؟.. تراجعت يمامة خلف الحائط الذي يتصل بالباب من جهة السياج. ثم سمعت بعد ذلك جلبة انفتاح باب بيت مثنى ودخوله إلى الكراج..توقعت أن يفعلها ويبزغ فجأة من السياج ويضبطها متلبسة بالوقوف خلف الباب تتلصص عليه .. فلم تملك في تلك

اللحظة إلا أن تداري ارتباكها بسحب خرطوم الماء من الحنفية والتظاهر برش الحديقة . . سمعته يمامة يتلكأ قليلاً قبل أن يدخل، حدست أنه يريد أن يناديها ليتأكد من وجودها . . ثم رأته يقفز فجأة ويطل بوجهه من السياج وكأنه جني،كلا . . لم تره . . خيل لها ذلك . . كما خيل لها أنها تسمع أنفاسه وكأنه كان قريباً من السياج ولكنه لا يجد القدرة أو الجرأة على فعل ذلك . . وبعد هنيهات من وجومها ووجومه، سمعته يواصل تقدمه نحو باب البيت الداخلي ويغلقه خلفه . . قرفصت يمامة على أرض مصبوبة وهي تنظر إلى الماء المتدفق من الحنفية دون أن تتمكن من النظر إلى شيء ما محدد بالفعل . .بدت لها طابوقة مثلومة ومرمية على أرض الحديقة، ثقيلة ونشازاً في هذا المكان . . من رماها إلى هنا ولماذا؟ العمى . قال زوج هنوة ذات يوم لعمر عندما طارت كرته وضربته في أم صدره . . لم يغضب عمر أو يدمدم وإنما استغرق مع باقي الأطفال في ضحك مكتوم، وهم يتلقون سيل الشتائم التي راحت تتدفق من فم زوج هنوة كالطلقات النارية . قلبت الطابوقة المستقرة في مكانها وكأنها موجودة في الطين منذ وقت طويل، فظهر تحتها دود كالمظلات، ظهوره محدبة بيضوية الشكل وتمتد تحتها أرجل دقيقة كثيرة العدد . . . لا ليس هذا هو الذي يأكلنا بعد أن نموت، حدثت يمامة نفسها . . فلماذا إذن يقولون أن حدائقنا تتميز بالخصوبة الشديدة لأنها كانت ذات يوم مقابر للبشر؟

أزاح الماء كثيراً من الديدان المظلية إلى أماكن أخرى وبقي غيرها بالعشرات، تحاول الهروب من ضوء النهار إلى أقرب زاغور

أسود مظلم. تركت يمامة الخرطوم على أرض الحديقة ومضت تدخل إلى البيت فوجدت خالتها تدمدم غاضبة:

- يا إلهي .. هل ستقفز هذه الحيزبون إلى بيتنا بين لحظة وأخرى؟

ثم أردفت:

- إن كانت أمها راقصة كما يقولون .. فهي والشهادة لله ما رأينا منها إلا كل طيب .. أما هذه العوجاء .. فأستغفر الله من ذنبها!!

في ذلك اليوم نفسه وقبل أن يحل الليل، ذهبت خالة يمامة إلى صديقتها أم مريم، وطلبت من زوجها أبي مريم أن يتدخل ويمنع هذه المرأة من السكن مع زوج أمها في بيت واحد .. فقال لها أبو مريم وهو يبتسم بوداعة شديدة:

- لا يحق لنا أن نحاسب الآخرين على أخطائهم.

قالت له:

- ننصحهم على الأقل يا أستاذ نجيب.

قال لها وهو يبتسم:

- كلنا أخطاؤنا كثيرة .. ولا يصلح للنصح من كانت أخطاؤه كثيرة.

# نقيض الشيء

## -1-

عاد من قريته في ضحى اليوم الثالث للعيد الصغير. فأعادت له يمامة ثلاثة كتاكيت طارت من بيته وحطت على شرفة مرسمها فأطعمتها وسقتها طيلة فترة غيابه .. ولكنها أخبرته أنها لم تر في حياتها أفراخ دجاج تتمكن من الطيران كالعصافير .. فقال وهو يضحك بمكر ذلك لأنها وقحة كصاحبها .. فسألته:

- وهل أنت وقح؟

قال:

- ماذا تقولين أنت؟

قالت:

- إنك من النوع الذي يصعب الحكم عليه أو الخروج عنه بإنطباع محدد...

فشكرها على رأيها الجديد فيه.. وقال إنه أفضل من ردود فعلها العصبية السابقة لأن فيه محاولة لفهمه والنظر إليه بحياد مرة ثانية.. ثم دعاها لأن تراه على حقيقته فوافقت. وفي اليوم التالي أخذها معه من سوق إلى آخر، نزلا في كراج العلاوي ثم صعدا، من هناك، إلى كراج الباب المعظم وعندما هبطا من الحافلة قالت له:

- إلى أين تأخذني بالضبط؟

قال:

- إلى ضرب البواري!

قالت يمامة باستغراب:

- ضرب البواري؟

دفعتهما إلى الخلف مجموعة من الناس تركض باتجاه سيارة كوستر توقفت في مكان قريب.. فأمسكها فجأة من يدها إليه وقال:

- ابق بقربي .. المكان مكتظ هنا.

استبقى يدها في يده قليلاً .. ثم كورها كالتفاحة في قبضته قبل أن يتركها وهو يقول:

- ألم تأخذيني إلى ندوتك عن الماهية؟

ضحكت .. ثم قالت:

- نعم.

قال:

- أنا أيضاً سآخذك إلى ماهيتي.

ثم نظر إليها بلطف .. وتنهد .. وكأن ملامسة يده ليدها قد تركت أثرها في روحه قبل قليل ولكن هذا الأثر قد وصل أنفاسه للتو .. دخل شارع الكفاح من جهة محلة الفضل .. مشيا على الأقدام .. بعد أن كانت سيارة النفرات قد أنزلتهما في كراج الباب المعظم.. ذلك الشارع عاد ليحمل اسم الملك غازي الذي

كان يحمله ذات يوم، يوازي شارع الملكة عالية من جهة وشارع الشيخ عمر السهروردي من جهة أخرى .. ثم ينتهي بمرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني قبل أن يفضي إلى مركز المدينة المؤدي إلى الباب الشرقي. لا زالت الأزقة التي تصب في هذا الشارع ضيقة جداً، لا يتسع بعضها لمرور السيارات وتتقابل شناشيل بيوتها حتى تكاد تتلامس لتظلل الأزقة وتجعلها تبدو أكثر ضيقاً .. خلف الشارع العام لا زالت مختفية المناطق ذاتها المهدية وقنبر علي والبوشيل والطاطران والهيتاويين وباب الشيخ، أما على الشارع العام فثمة مطاعم ومقاه ومحال تبيع المواد الإنشائية والكهربائية، وأخرى للحلاقة والبقالة والتصليح، وأخرى تعلق في واجهاتها أبواقاً وصاجات وأدوات موسيقية مختلفة تعلن عن أن هذه المحلات هي مقرات لبعض الفرق الشعبية التي تعزف في الأفراح والمناسبات وحفلات الختان. غيّر الزمن اسم شارع الملكة عالية إلى شارع الجمهورية ثم انتهى حاملاً اسم الخلفاء، إلا أن معالم هذا الشارع ظلت ثابتة لا تتغير .. أدوات موسيقية معلقة.. وأدوات سمكرة مستتبة .. وأزقة مظلمة تفضي إلى عوالم مجهولة لا تبدو منتمية إلى هذا الزمان.

وعلى بال يمامة أن هذا الشارع لا حاجة إليه أصلاً لا لقطع المسافة بين الباب المعظم والباب الشرقي دون الحاجة لاستعمال الشارعين المكتظين التوأمين اللذين يؤديان الغرض نفسه وهما شارعا الخلفاء والرشيد. وقد أصبح مهجوراً تماماً بعد أن افتتح طريق القاسم السريع الذي يفضي إلى الباب المعظم من جهة السايلو، ثم يرتفع فوق مقبرة الشيخ عمر السهروردي ويحط في

الباب الشرقي مؤدياً الغرض نفسه، وبزمن أقل قبل أن يمضي رامحاً باتجاه زبونة والمشتل ثم الرستمية. هكذا بدا لها هذا الشارع منذ سنوات . .شيئاً خارج الزمان والمكان . . بعيداً ومنسياً إلا من ساكنيه وشاغلي دكاكينه وسائقي السيارات الذين يتفادون شارع الخلفاء لازدحامه ، أو الذين يمنعهم شارع الرشيد من الدخول إليه أصلاً لأن سياراتهم من موديلات 1985 فما دون. ولكن مثنى يضعها فيه الآن . . لكي تروده وتتعرف على ماهيته الجديدة. هدوء في البدء . . وأعمدة أسمنتية تترى ومطر خفيف لمّ باعة الأرصفة من فرش البسطات المستوية على الأرض وهي تعرض ملابس داخلية رجالية ومكائن حلاقة ومرايا صغيرة وقراضات أظافر وملاقط وأمشاط شعر صغيرة وجوارب وصوابين وفرش حلاقة وأصباغ أحذية وكل ما يمكن أن يحتاج إليه الرجل العازب من مشتريات. لم يستمر ذلك الهدوء طويلاً، فلم يكادا يقطعان نصف مسافة الشارع حتى ابتلعتهما حشود من الرجال الذين يملؤون رصيف الشارع ثم يمتدون إلى منتصفه منتشرين بين السيارات الواقفة والمتحركة قاطعين حركتها أحياناً وهي تسير باتجاه واحد إلى الباب العظم . . كان البعض من اولئك الرجال يحمل أكياساً سوداء من النايلون مخصصة لنقل القمامة، ولكنها ملئت بأكداس من الدنانير العراقية التي تعد لتبديلها بالعملة الأجنبية . . هكذا قال لها مثنى وهو يسحبها إليه بين حين وآخر لتلافي غلواء الحركات التي كان البعض يفتعلها متأثراً بمرور امرأة بقربه . . قال أيضاً:

– هؤلاء الذين ترينهم واقفين على الرصيف يدخلون في

عمليات خفيفة فقط أي يستبدلون الأوراق القليلة من العملة الأجنبية بالدينار العراقي ولذلك فإن هذه العمليات في نهر الشارع .. أما إذا أردت استبدال خمسين ورقة فما فوق فهذه عمليات ثقيلة لا تتم إلا في داخل تلك المحلات .

أشار إليها بيده ثم قال:

– كل المحلات هنا تتعامل بالدولار وبعضها يتعامل بعملات منوعة كالسعودي والقطري والإماراتي والإسترليني والألماني والفرنسي ... هذه هي يا سيدتي بورصة العملات الأجنبية ببغداد..

أصبحت يمامة، التي كانت تظن إلى قبل دقائق مضت أن هذا الشارع مسكين وميت ومنسي، مذهولة وهي ترى شباباً بأعمار مختلفة ينتعلون أحذية رخيصة ويرتدون ملابس رثة وبين أيديهم أو خلف ظهورهم ملايين وملايين الدنانير، عندما اجتازا تلك الهوجة الهوجاء وتخففا من الضجيج قالت له:

– وأنت ماذا تفعل هنا؟ أتتعامل بالدولار أم المارك أم الين الياباني؟

قال:

– لا .. أنا أشتري السكائر بالجملة من هنا.. فهنا أيضاً بورصة السكائر بجميع أنواعها ومن مختلف المناشئ.

التلفزيونات جميعها كانت مشتعلة .. أينما نظرت يمامة داخل تلك المحلات .. وجدت التلفزيونات مشتعلة .. شبكة الإم

بي سي كانت تعرض لقاء لمحمد سعيد الصحاف مع مراسلها في سوريا، وشبكة الجزيرة القطرية كانت تعرض تقريراً لمراسلها في بغداد، وشبكة دبي الفضائية جعلت مراسلها يبقى في مدخل بناية الأمم المتحدة بنيويورك لمتابعة آخر تطورات زيارة كوفي عنان المتوقعة لبغداد، وبرنامج الجهات الأربع كان يعرض حواراً على الهواء مع طارق عزيز يتحدث فيه عن القصور الرئاسية السبعة التي تسببت بالأزمة بين العراق وأمريكا.

قال مثنى:

- السوك نازل.

فظهر مراسل تلفزيون الإمارات في بغداد وهو يقول إن كوفي عنان في طريقه إلى بغداد و إنه سيصلها بعد يومين، وأظهرت شاشة التلفزيون صور العراقيين وهم يدخلون القصور الرئاسية ويفترشون حدائقها وممراتها لحمايتها من الضربة الأمريكية المتوقعة.. ثم أعضاء المجلس الوطني وهم يكتبون بالطباشير عبارة «فلتسقط أمريكا» على عتبات المبنى .. ثم راح المذيع يستعرض ما يترتب عليه زيارة الأمين العام للأمم المتحدة من احتمالات .. واستعمال كلمة تتأرجح في أكثر من مكان ثم تمنى في نهاية تقريره أن تنتصر الجهود الدبلوماسية وتنجح في إبعاد شبح الحرب عن العراق والمنطقة بأكملها..

حدثت يمامة نفسها قائلة: إننا عشنا حياة كاملة وعيوننا متعلقة بالمذيعين .. ظهر المذيع .. قال المذيع .. بعد قليل .. بيان مهم .. ناطق عسكري .. نشيد .. ضربة متوقعة .. وكل

واحد من تلك المفردات كانت كفيلة بأن ترفع السوق أو تنزله .. كانت كفيلة بأن تجعل كوفي عنان عراقياً من أهل الكوفة أو أن تجعل من أممه المتحدة ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية. توجهها وتدير شؤونها الخارجية مادلين أولبرايت.

قال مثنى مرة أخرى:

– السوك نازل .. سأشتري ورقاً[1] بدلاً من السكائر ..

قال أحد الواقفين متهكماً:

– هو كوفي عدنان راح يحلها؟!

وقال آخر لآخر:

– الجماعة كبيسات دير بالك عليها.

وقال بائع الشلغم:

– مايع وحلو.

وقال الحمّال:

– يا الله .. يا محمد .. يا علي

وقال مثنى:

– سيظل السوك في النزول لحين توقع الاتفاق فيستقر يوماً أو يومين .. ثم يبدأ بالصعود ..

---

(1) يقصد ساشتري دولارات.

قال صوت ضاحك انطلق من مكان ما :

– لا تخاف .. بعد ماكو بواري![1]

قال مثنى :

– أشتري الآن .. وأبيع بعدين.

اشتد المطر.. وانسحب جميع الواقفين في نهر الشارع إلى الرصيف ليحتموا بسقفه من المطر.. قالت يمامة :

– أريد أن أعود إلى البيت..

قال مثنى :

– ولكني لم أنته بعد ..

قالت :

– ابق أنت .. أنا راجعة.

(1) بواري : عامية عراقية تعني مطبات و «انضرب بوري» تعني وقع في ورطة.

## -2-

دون أن تترك مجالاً للاعتراض، انقلبت مسرعة لتخرج من ذلك الزحام المارد الذي كان يتعملق حولها ويتحول إلى أصابع جبارة تفرك الأوراق الزرقاء والخضراء والبنفسجية، ثم تبلل ابهاماتها باللعاب لتورقها أثناء الحساب .. هل هذا يوم الحساب؟.. أوراق مخضرة ووجوه مصرفة وعيون محمرة .. وأقدام تترى وقلوب تهوى وأفواه تتلوى .. ومكان لا تدري من أين يستمد قوته الرهيبة هذه ليتحول من مجرد سوق تجاري عادي إلى محشر للثواب والعقاب ..

عبرت يمامة شارع الخلفاء من جهة الشورجة إلى السوق العربي ومن هناك إلى شارع الرشيد ومن شارع الرشيد إلى شارع المستنصر ومن شارع المستنصر إلى دجلة فوق بساط الريح، والمطر الذي كان ينزل بقطرات حادة بللت كل الأكياس التي حمت بها يمامة رأسها، خف وأصبح يبث نثاً خفيفاً دافئاً،اجتازت خان مرجان باتجاه نهر دجلة ثم انعطفت يميناً باتجاه المدرسة المستنصرية .. ومن نيويورك استقل كوفي عنان طائرة خاصة إلى باريس .. ومن هناك ستنقله مباشرة إلى بغداد، فلا تحط به في عمان ليأتي منها مشياً على الأقدام إلى بغداد .. إنما سيفتحون له المطار المغلق منذ سبع سنوات ثم يفتح عنان فاه ويقول افتح يا سمسم فتفتح له الأجواء المحظورة مغاليقها..

توقفت يمامة عند المدرسة المستنصرية لتلتقط أنفاسها، بعد أن

كان المطر قد توقف وتركها مبتلة تماماً . . تراءى لها أن أبا جعفر المنصور الذي جاب الغبراء سابحاً على ظهور الخيل قد تاقت نفسه لركوب الزوارق وصفحات المياه، فلما وصل دجلة سحرته بموجها الأزرق وألهمته بغداد فبناها . . هبطت يمامة جرف النهر عبر درجات من الآجر تقود إلى مرسى بدائي يقع على مرمى حجر من قصر حبيبة ابنة هارون الرشيد وساعة القشلة ومبنى السراي . . وهناك وقفت تنظر من ينقلها من جانب الرصافة إلى جانب الكرخ عبر دجلة . . وقد تاقت نفسها إلى هواء دجلة العنبر تستنشقه جالسة في زورق . .

في عصر اليوم ذاته سألت حسن الخطاط كيف تعرف على مثنى وصادقه رغم اختلاف الدراسة والعمل ومحلة السكن؟ . . فقال لها إنه تعرف عليه أيام الجندية في معسكر يقع على أطراف مدينة بابل . . كان ذلك قبل خمسة عشر عاماً تقريباً، وكان مثنى عندما ينزل إلى قريته أيام الخميس تصنع له أمه كل ما يحتاجه طيلة الأسبوع من أطعمة ومقبلات وفطائر ابتداء من الجبن والكباب والبيض المسلوق وانتهاء بالكليجة والكعك والخبز المعجون بالسمسم أو اللحم أو الجبن الأبيض والبقدونس . . لأنه هناك ، في المعسكر، كان يجد صعوبة في مشاركة باقي الجنود قصعة واحدة تمتد إليها أيدي الجميع بلا ملاعق . . سخر منه الجنود في البداية واعتبروه ولداً من أولاد الدلال لا يصلح لأن يكون رجلاً خشناً يتنكب السلاح أو يقاتل في الجبهات . . ولكنه كان أكثرهم انضباطاً في الحضور والتدريب والالتزام بالتعليمات . . وأجملهم نظاماً في ترتيب فراشه وتنظيف سلاحه

والحفاظ على حاجياته في أماكنها الصحيحة، وحده حسن الذي انبهر به وبنظافته وأناقة تصرفاته منذ أن رآه ينسحب من ثريد القصعة إلى قطع البسكويت أو يمد يده إليها، إذا ما اضطر للمشاركة، بشوكة أو معلقة. وقال حسن للآخرين منذ البداية إنه ليس رجلاً نازكاً ولا ناعماً ولا ابن دلال .. إنه مثقف وحسب .. وإن ثقافته هي التي تجعله مختلفاً ومترفعاً عن الآخرين .. إن عليهم أن ينظروا إليه جيداً ليكتشفوا كم هو نظيف ومنتظم ويستحق الاقتداء به، توجسوا في البداية وسخروا من وجهة نظره ولكنهم يوماً بعد آخر، اكتشفوا أن ذلك الذي اعتبروه نازكاً أكثر من اللازم، كان أكثرهم إقبالاً على التدريب وانضباطاً في ساحة العرضات وأقلهم عرضة لانتقادات رؤساء العرفاء وتعليقاتهم الجارحة. ولم يمض شهر واحد على التحاقه بالمعسكر حتى فهموا أن قضية التهام الطعام بالنسبة لهذا الرجل هي قضية تستحق أن تعامل بنفس الاناقة التي يعامل بها ملابسه ومناشفه وأغطية فراشه وكل مظاهر الحياة الأخرى التي يوليها الناس عنايتهم.

قالت يمامة لحسن:

ـ إذن نقيض الشيء منجذب إليه .. كنت تكره النظام كراهية العمى فانجذبت إلى هذا العاشق للترتيب والنظافة والنظام.

قال حسن:

ـ يبدو الأمر كذلك ..

ثم تحسر وقال:

ـ يقولون إن كيلوباترا التي أنهت حياتها بالسم كانت تستحم قبل ذلك بالحليب.

سألته يمامة:

– ماذا تقصد؟

قال:

– مثنى تغير وأصبح ابن سوق.

ثم صمت ولم يجد القدرة على إتمام كلامه.. كأنه أدرك أنه قد يجرح يمامة إذا ما آثار سؤالاً لم تثره هي بعد مع نفسها.. فطال الصمت.. ثم تعكر.. ثم قالت تقطع الصمت دون أن يكون لكلامها معنى سوى اقتراح الكلام:

– وابن السوق سيئ بالضرورة.. أليس كذلك؟

قال جاداً:

– لا.. ليس بالضرورة.. ولكن أيلائمك أنت أن تتزوجي أو ترتبطي بابن سوق؟!

كانت كلماته مفاجئة..قالها ولم يرتد.. وظل ينظر إلى يمامة منتظراً الجواب.. وهي تائهة في الصمت.. جاءت تبحث عند حسن عن جواب وها هو يفاجئها بسؤال.. ألف سبب وسبب يمنعها من التفكير فيه منذ أن تركت مثنى في شارع الكفاح فكيف يثيره حسن الآن وينتظر منها أن تعرف الجواب.

## -3-

حلّ الربيع عابثاً ومتقلب الأهواء .. تارة يعصف وأخرى يزخ وثالثة يهدأ كعادة الشباب الذين يقطعون أنفسهم هوى بين الفتوة وذروة الصبا وقبل أن يحلّ العيد ا لكبير بأيام قليلة، كانت دعوات الأمهات اللواتي فقدن أبناءهن في الحرب قد وصلت مبتغاها واستجابت لها السماء بعد أعوام طويلة من ترديدها يوم عرفات وباق الأيام وكل يوم .. سمعت ذلك يمامة من الأخبار أكثر من مرة .. وسمعته من طارق عزيز ومحمد سعيد الصحاف وهما يجيبان على أسئلة الصحفيين في المؤتمرات الصحفية التي يعرضها التلفزيون .. ولكنها لم تشعر به يتحقق ويصبح يقيناً إلا عندما طرقت بابهم امرأة مسنة كانت تبدو عليها مظاهر الفرح الغامر، وطلبت من يمامة أن تعطيها أي مبلغ تتمكن من دفعه لأنها نذرت أن تستجدي من البيوت إذا ما عاد ابنها من الأسر .. إذن الأسرى يعودون بجد بل وحتى المفقودين .. مضت كالبرق إلى جنان لكي تخبرها .. فوجدتها خارج البيت .. قالت أختها أشجان بعد ذلك أن جمال في الطريق إلى بغداد .. فاقشعر بدنها وتحشرج الكلام في فمها واختلط مع الدموع.

– أأنت متأكدة من ذلك؟

– ذهبت أم جمال إلى أحد الأسرى العائدين تواً من الأسر فأخبرها أنه كان معه في معسكر على الحدود الإيرانية الروسية .. وأنه كان معه على الحدود العراقية الإيرانية عائداً ضمن نفس الوجبة .. وربما يصل في أية لحظة.

صرخت يمامة:

- يا إلهي يا أشجان، أحقاً ما تقولين؟ كل هذا يحدث وأنا لا أعلم؟

قالت أشجان :

- لأنه حدث خلال ساعات فقط .. أم جمال عادت من بيت ذلك الأسير هذا الصباح وأخبرتنا .. كان الله في عونها .. فرحتها بعودة ابنها الأصغر ناقصة لأنها لا تعرف شيئاً عن ابنها البكر .. كل الذي أخبروها به أنه ما دام ضابطاً .. فيتأخر تسليمه إلى العراق.

قالت يمامة وقد أخذت الدموع تجري من وجهها إلى عنقها وثيابها:

- وجنان .. أين هي؟

قالت أشجان مخنوقة بالعبرة:

- لا يمكنك أن تري الحالة التي هي عليها. نظرت إلى المرآة فجأة واكتشفت أن الشيب في شعرها كثير جداً .. فصاحت يا رب دعني ألحق أصبغه وأصففه قبل أن يراه جمال .. ثم ركضت لسيارتها كالمجنونة وذهبت إلى صالون الحلاقة.

مرت السنوات كالثواني .. مثل قارب ترك الضفة قبل فترة قصيرة والآن يعود ليجد الجميع في انتظاره .. قالت جنان منذ أن ساورها القلق على جمال في آخر مرة ذهب فيها إلى الفاو ولم يعد: سأكون عروساً له حياً أو ميتاً .. وها هي الآن تقطف زهرة

ذبلانة – ظن الآخرون أنها جفت وماتت– وترشها بالماء في عز الربيع كي تحيا وتنتعش وتتضوع بالعطر في زمن جديد غير الزمن الذي ذبلت فيه،كم قدّمت وكم أخرّت .. كم صعدت وكم نزلت.. كم احتملت طرقات الخطاب على بابها وتحلت بجلد الحجارة كي لا ترد .. كم ليلاً طويلاً بارداً توسدت فيه زندها كي تتحايل على خلجات أشواقها إليه .. كم قمراً استيقظ على ظلامها وظلامه ونظر إلى كل واحد منهما على حده، وهو صامت وبعيد في الأجواء الجرداء العالية .. كم دمعة من عينيها سقطت ثم جفت دون أن يعرف أحد أو يلحظ أو يكترث، كانت تقول دائماً: إني أشتاق إليه أكثر في ليالي الصيف .. لأننا في ليالي الصيف اعتدنا أن ننظر إلى النجوم في السماء الصافية .. والنظر إلى النجوم يثير مخاوفنا وهواجسنا ويذكرنا بكلٍ ما هو مجهول.. والآن عندما أنظر إليها فإنها تذكرني به دائماً لأنها مثله تثير هواجسي ومخاوفي وتقربني من المجهول.

لم تهدأ يوماً عن متابعة أثره النائي من معسكر إيراني إلى معسكر إيراني آخر وهي في مكانها في بغداد .. لجنة الصليب الأحمر قالت أن اسمه مسجل لديها .. وميشل ديكرو ممثل بعثة الصليب الأحمر الدولية في بغداد كان لا يجد جواباً محدداً يقدمه إلى الصحفيين الذين يسألونه عن مصير عشرين ألف أسير عراقي، لا زالوا في الأسر ، هم وحدهم المسجلون لدى المنظمة الدولية من مجموع ثلاثة وستين ألف مقاتل عراقي عُدوا من المفقودين أو الأسرى .. مصيرهم كان في علم الغيب ولكن للقلوب أسباباً لا يدركها العقل وبقلبها أدركت أن اسمه ما دام

مسجلاً لدى الصليب الأحمر فإنه موجود وإنه بخير وإنه سيعود.. ولكي تحفظ إيمانها في قلبها من كل تلف وضعت يداً وهمية على أذنيها وسدتهما عن كل ما يمكن أن يقال لها من كلام يعارض ما آمنت به أو يخلخل ثقتها به أو يقلل من إمكانية حدوثه.

ولم يقدر أحد أن يسألها قط لماذا تفعل ذلك؟.. وكيف؟.. وهل من جدوى؟ إيمان قلبها كان قد انعكس على ملامح وجهها.. فأغلق كل المنافذ على أي إنسان يفكر بطرح مثل هذا السؤال عليها .. وأصبح تحصيل حاصل لكل من يعرف جنان .. لأهلها وأهله وأهل الزقاق أجمعين .. إن جنان تنتظر جمال وإن جمال سيعود ذات يوم .. وهذا اليوم هي وحدها التي تراه مثل قمر مكتمل في سماء بلا غيوم .. كانت تبتسم مع نفسها أحياناً.. فلا يسألها أحد عن سبب ابتسامها لأنه بينه وبين نفسه كان يعرف أنها تبتسم برضا لأن عينيها تريان سراً رقراقاً يفرح قلبها ويبعثها على الابتسام. وهو اليوم يعود .. القارب الذي ترك ضفته البارحة فقط ليسبح بعيداً يعود اليوم ليجد أن نخلة تركها على الشط بطول قامته أصبحت اليوم تمس الطابق الثاني من بيتهم وتظلل سعفاتها نوافذهم ونوافذ الجيران ..

قالت جدة جنان وصوتها يأتي من غرفة المعيشة خافتاً وضعيفاً كالنسيم:

– أتمم هذا اليوم بخير .. أتمم هذا اليوم بخير .. أتممه على خير يا رب بجاه نبيك محمد .. بجاه كل من عنده جاه عندك.

ولم يكن يشبه مطلع هذا الفجر فجر آخر .. استيقظ النوم

على صوت موسيقى شعبية تنطلق من مكان ما.. خافتة في البداية توقظ من كان نومه خفيفاً، ثم قوية تصدح وتتعالى لتوقظ من كان نومه ثقيلاً .. هل حلّ العيد الكبير .. تساءل البعض بين اليقظة والنوم، وهو يعتقد أن عازفي الطبول والأبواق يدورون على الأبواب ليعزفوا ألحاناً راقصة مقابل مبالغ يجود بها عليهم أصحاب البيوت .. ولكن ثمة أسبوعين بين اليوم وأول أيام عيد الأضحى الكبير.. فما هذه الموسيقى التي تنطلق صاخبة في الزقاق؟ ولمن تعزف هذه الطبول لتوقظ أهله من سبات عميق؟! نظرت يمامة إلى الساعة المنضدية التي بقربها فوجدتها تشير إلى الرابعة والنصف .. وما هي إلا ثوان معدودات طار فيها النوم من عينها، حتى قالت لنفسها:

- جمال

هبط قبلها قلبها وهي تنزل درجات السلم ركضاً إلى خارج البيت .. لحقت بها خالتها، وهي تردد الصلوات على النبي محمد وآل محمد وعندما أصبحتا عند باب البيت كان الموكب قد اجتازهما وتوقف عند بيت جمال ..صدق الوعد إذن .. إنه جمال .. قد عاد ووصل إلى عشه الذي تاه عنه منذ سنوات .. هل وصل حقاً؟ أم كان ما يحدث حلماً؟.. لو كانت يمامة قد رأته لوحدها لقالت إنه حلم من أحلام الفجر الطافيات .. طيف من أطياف ساعة الفجر نتذكره بوضوح في اليوم التالي لأن شيئاً ما يوقظنا من منتصف النوم فيعلق ذلك الطيف في الذاكرة قبل أن نعاود النوم من جديد .. ولكنها لم تكن لوحدها تشاهد موكب الرجال يمر كالبرق من بيوت الزقاق بيتاً .. بيتاً .. بيتاً ليستقر عند

البيت الأخير ويتحقق. كان جميع أهلٍ الزقاق يشاهدونه معها، رأتهم يمامة يخرجون من بيوتهم واحداً بعد الآخر ويقفون في الأبواب بملابس النوم حفاة لا يمتلكون القدرة بعد، على استيعاب ما يحدث أمام عيونهم أورؤيته بوضوح تام. خرج حسن وخرجت سناء .. خرج كاظم البغدادي وخرجت زوجته فائقة وابنه عمر وبناته الثلاث .. خرج موفق وزوجته وأخته لمياء .. خرجت أم مريم وخرج أبو مريم .. خرجت حياة بنت هنوة .. وخرج مثنى وأخوته جميعاً .. خرجت أشجان وأفنان وجدتهما .. خرجت أم جمال وأبو جمال وإخوانه وأخواته وأعمامه وأخواله خرج جميع من كان في الزقاق .. وحدها جنان التي لم تخرج.

** ** **

أكان يمكن لها أن تقف لتتفرج، حالها حال الجميع، لاطية أمام الباب على رجل سيهبط من سيارة بعد قليل هو بالنسبة لهم أسير سابق يعود إلى بيته وأهله وأحبابه وبالنسبة لها حياة تنبثق للتو من رحلة موت طويل؟ .. كيف يمكن أن تقف حالها حال الجميع لتتفرج وهي التي شعرت أن تلك اللحظة تخرج من أحشائها وأنه لا ينبغي لأحد ما أن يراقب أماً من الامهات وهي تتخبط في آلام الولادة ساعة المخاض؟ ظلت تلوب وتدور داخل البيت وقلبها يخفق منخلعاً في رأسها وأصابعها وعنقها وكل جزء من أجزاء جسمها.. ثم نظرت فجأة إلى سلم البيت فانتشلها من حيرتها وخوفها، وتلقفها في لحظة واحدة من داخل الظلام ليرميها إلى سطح البيت حيث تتمكن من أن تراه لوحدها بعيداً عنه وعنها وعن الناس وعن كل شيء.. كانت الشمس التي لم

تشرق بعد تلقي من مكانها الخفي خلف الأفق ضياء غامضٍ اللون رآه البعض أصفر والبعض الآخر أحمر والبعض الآخر برتقالياً . . أما أنا فرأيته ناصع البياض . هكذا حدثت جنان يمامة فيما بعد وهي تقول: في اللحظة التي نزل فيها جمال من السيارة . . كنت أقف خلف سياج سطح البيت، ملتصقة به وأنا أنظر إلى السيارة خائفة أن يراني أحد . . فيعرف أني كنت أتلصص على درجة امتحانية قبل أن يعرفها أحد غيرها . . كنت أريد أن أعرف نتيجة امتحاني لوحدي وقبل الجميع . . وفي اللحظة التي هبط فيها جمال . . كان جسمي ينتصب ورأسي يرتفع دون أن أتعمد ذلك أو أشعر به . وعندما أصبح تحت نظري، نظر إلى باب بيتنا فلما لم يجدني واقفة بانتظاره رفع عينيه فوراً إلى السطح والتقت نظراتنا بطريقة تشبه اشتعال البرق . كيف شعر بوجودي هناك على السطح؟ لا أدري كيف أدرك أن فوق كل تلك الرؤوس التي كانت مصوبة نحوه تنتظر أن يراها وأن تراه . . هناك قلب دفعه الخوف إلى هذه القمة البعيدة فجلس يرتجف ويرتعد في انتظار لحظة الخلاص؟ . . لا أثر كان يدل على ذلك فيما بدا لي . . سوى نبضات قلبي التي طغى صوتها في أذني على صوت دق الطبول . . فهل من مكانه سمعها . . فرفع رأسه إلى فوق واشتعل برق أحرق المكان بأكمله ثم أحاله إلى هشيم؟ . . أين جمال؟ عيناه فقط هما اللتان دلتا عليه . . نظرته المستفهمة عن شيء قديم لا يعرفه أحد سواي، هي التي دلت عليه . . لفتته الملهوفة إلى أعلى . . أما سوى ذلك فلم يكن جمال الذي عرفته ذات يوم وأحببته . . بل كان كهلاً أبيض الشعر والشاربين مجعد الوجه يحاول نصب قامته المنحنية بأقصى ما يستطيع كي يبدو كما كانت عليه من قبل أمامي . .

أخفض جمال بصره من فوق، بعد أن اطمأن أن زهرته موجودة ولم يقطفها منه أحد ثم ارتمى في أحضان أمه وأخواته وأبيه .. تركه الآخرون لأهله . وأخذت زغاريد النسوة ترتفع وتلعلع لتطرد آخر خلسات النعاس من العيون واختفى جمال خلف الباب بينهم خمس دقائق فقط .. خرج بعدها وهو يسحب أمه وأباه من بيتهم ويدخل بيت جنان ليطلب يدها للزواج..

وقفت يمامة مع حسن وزوجته في الباب لتشارك سناء دموعاً كانت قد أثارتها فيها فرحتهما بجنان أكثر مما أثارتها فرحتهما بعودة جمال .. أخذ الرجال والنساء يتجمهرون حول البيت ويدخلون إليه .. كلهم يعرفون جمال منذ كان طفلاً، وبعضهم شهد ولادته وولادة أخوته في هذا البيت .. مثنى فقط من لا يعرفه من الرجال وحياة ابنة هنوة من لا تعرفه من النساء .. ظل الاثنان واقفان كل في بابه ..يفعلان ذلك بدافع الفضول وحسب.

قالت سناء وهي تجهش بالبكاء:

– لأول مرة في حياتي أرى خطبة تتم في الساعة الخامسة فجراً.

قالت يمامة:

– كأنها وحدها جنان التي كانت ترى هذا اليوم يحدث، فحدث فعلاً.

# العيون السود

## -11-

استنتجت سناء زوجة حسن جازمة أن العدل موجود في العالم... وقالت لكل رائح وغاد ان خاتمي زواجهما كانا جاهزين في علبة اشتراها جمال لجنان قبل خمسة عشر عاما. قالت يمامة لها وهل قرعت ابواب الأمهات كلها وقيل لهن: هاكن أبناءكن.. خذوهم لكي يتحقق العدل في العالم. قالت إن عودة جمال قد حققت العدل لجنان التي انتظرته خمسة عشر عاما.. وتتمنى العدل للآخرين أيضاً.

جنان بدت مذهولة قليلة الكلام تنظر حائرة وكأنها لا زالت تبحث عن العدل. منذ أن عاد جمال من أسره ووضع خاتم الخطوبة في إصبعها.. استقرت تلك النظرة في عينيها . بعد ذلك بيوم واحد ذهبت إليها يمامة فوجدتها بملابس البيت تضع كفها على صدغها وتدخن.

قالت لها يمامة:

-ما بك؟

استغربت جنان ونهضت ، ثم احتضنت يمامة وهي تبتسم:

- لا شيء .. ماذا يبدو علي؟

قالت يمامة:

-تبدين تعبانة.. وقلقة.

قالت جنان وابتسامتها تصبح أكثر غرابة من ذي قبل:

ـلا .. لست قلقة.

اختفت من وجهها ملامح تلك النظرة السارحة الى المجهول برضا وشبح تلك الابتسامة الطافية على الفم بلا سبب.. اختفت، وحلت محلها ملامح وجه تائه خلف عبء ثقيل أو غاطس في ورطة. أعادت يمامة سؤالها:

ـما بك جنان؟

نظرت إليها مليا قبل أن تجيب.. ثم قالت :

ـوأنا أغسل وجهي في الصباح دخلت في عيني ذرة صابون.. وأشعر أني أريد إغماضها طيلة الوقت.. لأنها تحرقني إذا فتحتها.

عرفت يمامة أنها تراوغها.. وأنها في أمس الحاجة لأن لا تفعل ذلك فقالت لها:

ـأهو جمال ؟ ما به؟

عيناها كانتا محمرتين بالفعل.. وثمة عروق حمراء تخترق بياضهما من الزوايا الأربع ..أغمضتهما قليلا ثم فتحتهما مرة أخرى وقالت.

ـما به جمال؟ لا أعرف ما به؟ إنه يبدو لي رجلاً آخر غير الذي عرفته وانتظرته طيلة تلك السنين ..

قالت يمامة.

ـكيف؟

قالت جنان:

- إنه غريب عني.. هذا كل ما في الامر.

قالت يمامة:

-ما هو إلا يوم واحد..

قالت جنان:

-بل ساعة واحدة كانت كافية.. إنه هرم غريب.. وكأني أخجل منه..

قالت يمامة: هذا شيء طبيعي.. إنك لم تريه من خمسة عشر عاماً.. وفجأة وجدته أمامك بعد هذا العمر الطويل.. ومن الطبيعي أن تجديه قد تغير وأسن فجأة وأن تشعري بالغربة معه بل حتى بالخجل.

قالت جنان وهي تمس بإصبعها الشاهد أعلى صدغها:

-ولكنه كان هنا..

قالت يمامة:

-في رأسك ظلت صورته كما هي عندما افترق عنك قبل سنوات. .لم يمر عليها الزمن ولا ترك عليها أثاره..في حين أنّ أسره في مكان تحت رحمة الزمن وعذاب الأسر.. جعل شعر رأسه يشيب بالتدريج، وتغضن وجهه بالتجاعيد، وتغيرت روحه من الداخل بشكل لم تكوني لتلحظيه لو كنت قد عشت تلك السنوات معه يوما بعد آخر.. أنت وجدت ذلك كله أمامك فجأة.. فصدمك بغرابته.

قالت جنان:

-وهذا هو ما حصل .. أنا مصدومة.. لا أكثر ولا أقل.

ثم استمرت وكأنها تحدث نفسها:

-أنا أيضاً تغيرت طيلة هذه السنين .. شاب شعري وظهرت بعض التجاعيد على وجهي ..أما من داخلي فأشعر أني قد كبرت عشرات السنين عما كنت عليه، ولكني لم أجده مصدوما بي.. كانت فرحته بي تؤكد لي ذلك.. أنا أشعر بالفرح.. تخيلي يا يمامة بعد كل سنوات العذاب.. عندما حانت لحظة اللقاء شعرت بالخيبة بدلا من الفرح.

قالت يمامة:

-هذا لأنك عشت زمنا طبيعيا وحياة طبيعية.. أما هو فعاش خارج الحياة وخارج الزمن . وأي شيء ستمنحه إياه الحياة سيجده أجمل مما توقعه.. أما أنت فما توقعته كان أجمل مما رأيته.. لأنك عشت زمنا طبيعيا وحياة طبيعية.

صمتت جنان ولم تجب.. صمتها كان خاشعا.. طال به الوقت قبل أن تقول:

-وماذا عليّ أن أفعل الآن؟

قالت يمامة:

- أن تنتظري حتى تعتادي عليه أو يرمم ما فاته فتصبحان في زمن واحد.

فاضت روحها بحسرة طويلة وقالت:

-أنتظر مرة أخرى؟!

ابتسمت لها يمامة بحنان وقالت لها:

-أنسيت من أي زمان هو جمال؟

صمتت جنان ولم تجب فراحت يمامه تترنم:

-وأنت عارف ما أنت عارف قد إيه كثيرة وجميلة.. العيون السود في بلادنا.. يا حبيبي

من رماد الصمت.. سطعت ابتسامة جنان كقطعة ذهب.. ثم ضحكت وقالت:

-العيون السود؟!

ثم سرحت بنظرها بعيدا كأنها تحاول رؤية شيء ما فاتها أن تراه من زمان:

-ياه.. كم نسيتها يا يمامه..

قالت يمامه:

-ولكني.. لم أنس..

نظرت جنان إليها بمرح وقد التمع في بالها سؤال، فقالت:

-ولكن أين يا ترى حط الدهر بحازم؟

هوى قلب يمامه الى القاع. فقالت لها جنان:

-أليس هو أيضا من زمان العيون السود؟

نظرتا الى بعضهما البعض وكأنهما صغرتا عشرين سنة..
فتاتان تتبادلان أسرار الحب بينهما للمرة الأولى. بأسى ردّت يمامة
قائلة :

–لا أعرف .. يقولون إنه في أمريكا..

– وهل تشتاقين إليه؟

–جدا.

قالتها يمامة وكأنها تبث لوعة.. وضحكت .. ثم زفرت
وقالت:

–ربما تزوج الآن واحدة من ملته.

نظرت الى جنان.. ونظرت إليها جنان.. وتحسرت الاثنتان ثم
صمتتا.. وأدركتا انهما تتحدثان باللوعة نفسها التي كانت
تتحدثان بها أيام المراهقة.. جعلهما ذلك تبتسمان ثم تصمتان
ثم تهزان رأسيهما بوقت واحد.. ثم تستغرقان في ضحك طويل.

-٢-

رفعت سناء قنينة الحليب من فوق المنضدة المجاورة ثم أخرجت بضعة قطرات من حلمة الرضاعة إلى ظاهر كفها لتختبر حرارة الحليب. قالت:

-زينب حرارتها مرتفعة قليلا.. أخذتها الى جنان لتفحصها وقالت إن الحرارة قد تكون بسبب التسنين.

قالت الخالة:

-ألم تصف لها دواء للحمى؟

قالت سناء:

-أنتي بايرول.. وكثير من السوائل.

قالت الخالة:

-اسقيها بعض البابونج.

وطأت سناء بأصبعها سنا نتأت من لثة الصغيرة..

ثم قالت يمامة:

-نفد عندي ورد البابونج.

رفضت الصغيرة قنينة الرضاعة.. فقالت سناء وهي تنظر إلى الأرض:

-الجو أخذ يسخن.. متى ترفعون السجاد؟

جاءت يمامة بالبانوخ من المطبخ فقالت لها سناء:

-يمامة.. ألا زلتم تبدلون طحين الحصة بالصمون ؟[1]

قالت يمامة:

-نعم

قالت سناء:

-الأفضل ان تحتفظوا بما بقي لديكم من طحين.. لأن طحين الشهر القادم سيرجع أسود كما كان.. عرض التلفزيون ندوة حول غزارة البروتينات في الطحين الأسمر.. وفوائد ذلك للمعدة والقولون والامعاء.. وعندما يتذكرون فجأة ان الطحين الأسمر يقضي على الامساك فذلك يعني أنه قادم إلينا لا محالة.

قالت الخالة:

-متى يفرجها الله علينا؟ ..أمة محمد بالخير.. بس إحنا قال الحمص وحكى الطحين.

مدت سناء باطن كفها أمام الخالة فظهرت منقوشة بالسواد وكأنها مغطاة بالوسخ .. قالت..

-طلعت روحنا.. حتى إيدي صارت سودة من تفليس الباقلاء.

---

(1) نوع من الخبز يشوى في أفران حجرية.

قالت الخالة:

ـادلكيها بالليمون دوزي.. يزول السواد..

همت سناء بحمل طفلتها ومست جبينها براحة كفها من جديد..

قالت:

ـلقد غفت..

استوقفتها الخالة:

ـلا تنهضي .. أين تذهبين؟ .. ضعيها هنا على الأريكة.. ابقي ..ابقي لقد وضعت الشاي على النار.

قالت سناء وهي تضحك:

ـوالله يبدو أن سرتي مقطوعة هنا.. كلما فقدني حسن جاء ليبحث عني هنا.

وعندما فرغت من الصغيرة وقنينة الرضاعة، وتفرغت لاستكان الشاي، قالت ليمامة:

ـها ؟ ما أخبار جيرانكم الجدد؟

قالت يمامة:

ـأي جيران منهم؟

وقبل أن ترد سناء.. انبرت الخالة قائلة:

ـوالله حتى دجاجهم مصدر إزعاج.. هل رأيت في حياتك

دجاجة تقف على الأشجار مثل العصفور .. هذا هو دجاجهم كل يوم تطير واحدة الى بيتنا وتوكر فوق شجر النارنج.

ثم رفعت شايها من الطبق إلى فمها بانفعال:

-لعنة الله على الشيء الذي لا يشبه صاحبه..

ثم قالت فجأة كمن تذكر شيئا:

-لعنة الله على الشيطان ..لقد نسيت.. حمدا لله على سلامة أم حسن.. متى عادت من الحج؟

قالت سناء:

-قبل أيام

سألت الخالة:

-وكيف هي؟

قالت سناء:

-بخير.. وجهها منور كالبدر.

فقالت الخالة وهي تنظر إلى يمامة

-يجب أن نزورها يا يمامة.

ما أن ذكرت خالتها اسم أم حسن أمامها.. حتى سمعت يمامة صوت جورب صوفي يلبس في رجل خشنة فيصدر خشخشة مسموعة من جراء احتكاكه بشقوق كعب قدميها.. كانت ريفية تعتز بريفيتها.. تغطي تلفزيونها بأورتي تفتة بنفسجي اللون مطرزة حافاته بورود حمراء منتفخة على شكل خلايا الزنابير،

وتغطي مساحات البلاط التي لا تصل إليها حافات السجاد ببسط ممدودة مصنوعة من صوف الخراف مشغولة باليد ومقلمة بخطوط بنية غامقة .ضفيرتاها الطويلاتان تتدليان من تحت النمزبيز [1] الأبيض الذي تضعه على رأسها. . . وتستيقظ عند الفجر في كل يوم، لتقف خلف تنورها الطيني المشيد في زاوية الحديقة وتسجره بالحطب اليابس الذي تتصاعد نيرانه من فوهة التنور فيبعث دخانه رائحة شهية في الزقاق كله. . .

يتحول الحطب إلى جمر مستعر يرسل حرارته اللاهبة إلى أقراص الخبز الملتصقة بحوض التنور فتختفي رائحة الدخان تلك بعد قليل تحل محلها رائحة عجين يشوي للتو. . رائحة دخان. . أو رائحة خبز مشوي وعندما ترى يمامة حسنا يخيل لها أنها تشم فيه خليطا من تلك الروائح، ورائحة البسط الصوفية التي كانت تداهمها عندما تدخل إلى منزلهم وهي صغيرة .. سكنت أم حسن ذلك المنزل لحين مات زوجها قبل سنوات، وعندما تزوج حسن وعاد ابنها الثاني من بعثة دراسية في أمريكا آثرت أن تذهب للسكن معه ومع زوجته. . ابنة أختها في بغداد الجديدة.

تنورها الطيني لا يزال موجودا في زاوية الحديقة. . فوهته الجانبية الملاصقة للأرض لا يزال يبدو من خلالها، ويا للعجب ، بعض الرماد.

قالت سناء للخالة :

ـلا أكيد سرتي مقطوعة هنا. . لقد تأخرت .. ويجب أن أذهب. .

---

(1) وشاح من قماش خاص يستعمل لتغطية الرأس.

سناء أطلقت على ذلك التنور المهجور اسم مستشفى الهلال الأحمر.. بعد أن جعلته القطط مكانا مفضلا تلوذ به لوضع صغارها وتحتمي به من العيون أثناء المخاض...

حملت سناء طفلتها ومست جبينها براحة كفها من جديد:

تبدو أفضل حالا...

نهضت الخالة.. نهضت يمامة.. قالت لها:

-سلمي لي على أم حسن.. سلمي لي عليها كثيرا...

-3-

انشـقت الأرض عنه.. جـفلت يمامـة ثم تراجـعت إلى خلف سيـاج السطح، ولاذت خلف ثقوب الزخرف الجصي الذي كـان يزين حافة السياج من الأعلى.. كان جالسا على مقعد وابنة هنوة تقـابله على مقـعد آخـر.. يداعب ثمرة في فـمهـا ويتلذذ.. ولم يكن بامكان يمامة التقاط وجهه بسهولة في البداية .. لمحت فقط بدلتـه السفـاري البيج من بين سعـفات النخل التي تظلل فـسحة واسعة من المكان الذي يجلس فيه.. أغبر الجو. وأصبح حاميا.. حرك يده لطرد الذباب .. ثم تحركت سعفات النخيل بهبة هواء مفاجأة.. وبان وجهه على الملأ الأسفل. كان يأكل من صحن فيه تمر ويداعب ثمراً في فم حياة ابنة هنوة فيأخذه من فمها ليضعه في فمه.. ثم يقترب من وجهها عابثاً مداعباً.. كانت ترتدي قميص بيت عاري الكتفين وتجلس في فسحة السطح الواطي الذي تفضي إليه شقتها المقتطعة من الطابق العلوي.. ظلت يمامة لاطية خلف الثقوب والعرق يتفصد على جبهتها وفوق عنقها.. أخذ يرشـهـا بالماء.. ثم يحـرك يده على كـتفـهـا وكـأنه يحـمـمـهـا.. جلست في حضنه أو لم تجلس.. تحركت.. وكأنها ترقص، عادت سعفات النخيل فسكنت وهدأت سورة الهواء المفاجئة، أظلمت الرؤية أمام عينيها فأدركت يمامة كم كان الضوء ساطعاً على السطح.

قالت لها خالتها:

-أين كنت؟

فقالت:

-في جهنم الحمراء

ثم وضعت سلة الملابس التي جمعتها من فوق حبل الغسيل، على الأرض.. وصمتت ولم تخبرها بما رأت.

خرجت من البيت فرأت لمياء تقف قرب باب بيتهم وفي يدها شيء ما تنظر إليه بحيرة من لا يعرف ماذا يفعل بقطعة نقود عثر عليها فجأة. عندما رأت يمامة تقدمت منها وهي تمشي بحياء.. ثم فتحت قطعة قطن ملفوفة على سن مقلوع وقالت:

-سقط.. سقط.. هل أرميه لعين الشمس؟

كانت وهي تتحدث تبدو وكأنها تحدث نفسها... ألقت يمامة نظرة على السن المقلوع.. ونظرة إلى السطح الواطيء لبيت هنوة.. كانت هنا وهناك.. ولم ترد فقالت لمياء:

-هـ.. أرميه؟

كلماتها ناقصة أحيانا.. لأن ما تقوله في رأسها هو الجملة كاملة، وما تلفظه منها يكون بداية الجملة أو منتصفها أو نهايتها.. قالت يمامة:

-ارميها.

قالت لمياء:

-وتعطي الشمس.. الغزال

تنهدت يمامة.. وقالت:

-هل أنت التي قرعت الجرس؟

قالت لمياء:

-أي

قالت يمامة:

-لماذا لا تدخلين.

قالت لمياء والقطنة مفتوحة في يدها:

-أخي لا يقبل.. لا يقبل أذهب.. إلى طب.. الأسنان يقول.. غال

قالت يمامة:

-إنه غال فعلا.. ولكن لماذا لا تدخلين؟

استدارت وعادت أدراجها دون أن ترد.. تذكرتها يمامة خارجة في الفجر من بيت هنوة.. شكت في أنها قد رأت ذلك المنظر أصلا.. ولكنها الآن لا تشك فقد انفتحت شقوق وشآبيب الجحيم أمام عينيها قبل قليل.. وزوج هنوة هذا يقف على باب الجحيم مثل شيطان يدعو لمياء وحياة إلى الدخول.. فمن منهما دخلت ومن لم تدخل!!؟؟

قالت خالتها وهي تسقي ورد الحديقة:

-سبحان الله... عمرها فوق الخمسين وتتصرف كأنها طفلة.. هذا غريب والله.. والأغرب منه أن اسمها لمياء!

## -41-

-عيني يمامة الحقينا.. أبوعمر لا ايد ولا رجل.

هرعت يمامة إلى بيت جنان وأخبرتها بحالة كاظم البغدادي فوضعت قميصا فوق ملابسها وأخذت يمامة وكاظم البغدادي وزوجته في سيارتها وانطلقوا جميعا إلى المستشفى. أجلست أبو عمر في المقعد الأمامي ورأسه مرمية إلى الخلف وكان لونه يمتقع شيئا فشيئا ونفسه يزداد صعوبة، وفي الطريق أخذ يتقيأ . قالت زوجته:

-قلبي أخبرني.. رب استر علينا.. رب فوتها سلامات.. بجاه حبيبك محمد.

اضطرت جنان إلى ضرب أكثر من اشارة حمراء مرت بها. وعندما طلبت منها يمامة أن تأخذ حذرها قالت بالإنجليزية:

-Very serious . his condition is very serious.

وقرب بوابة المستشفى سمحوا لسيارتها بالدخول إلى باب ردهة الطوارئ مباشرة وهناك هبطت من السيارة وقالت لممرض كان يقف بباب الردهة:

V.F -

فهرع إلى النقالة دون أن يطلب مساعدة أحد، وحمل كاظم لوحده إلى النقالة وراح يدفعه إلى غرفة الإنعاش. عندما مددوا

كاظم البغدادي على النقالة. فتح عينيه قليلا.. ونظر نظرة غائمة لا تفصح عن شيء ولا تتوجه إلى هدف.. كأنها مجرد شرود في حلم لنائم انفتح جفناه فجأة.. صاحت زوجته:

-يمه الرحمن.. اسم الله الرحمن..

ثم ذهبت خلفه.. وعندما انتبهت جنان إلى أن أبواب السيارة لا زالت مفتوحة رمت ليمامة مفاتيحها وقالت:

-ابقي بقربها.

ثمة خرطوم ماء ممدود على أرض الحديقة ومربوط بحنفية لم يحكم إغلاقها تخرج منه قطرات متباعدة.. فيقف عند فم الخرطوم أكثر من عصفور ليشرب من تلك القطرات. كانت الحديقة لا تدل على أنها تنتمي إلى ردهة طوارئ في المستشفى.. حديقة معتنى بها جيدا ونظيفة تحيط بسياجها من الداخل اشجار النخيل، وتصطف بين نخلة وأخرى صفوف من أشجار النارنج والبرتقال والليمون.. خلالات التمر الذي تكور وأخضر كان يتساقط من النخل بصوت مسموع على الأرض.. حبة تمر تسقط.. وأخرى بعدها.. وصوت ارتطام كل واحدة منها بالأرض يتردد بشكل متباعد وغير منتظم.. مرت ممرضتان تضعان ايديهما في جيوب الصدريتين البيضاوين اللتين ترتديانهما.. كانتا تتحدثان.. أخرجت أحدهما يدها من الجيب.. نظرت في مرآة صغيرة.. وسألت الأخرى: كم عدد الذين أدخلوا المستشفى وهم مصابون بالجلطة أو الذبحة خلال هذا الأسبوع. قالت الأخرى: كثير جدا

أعادت الأولى المرآة الصغيرة إلى جيبها وأبقت يدها هناك.

كانتا طويلتين جدا.. ونحيفتين جدا.. وقالت يمامة لنفسها إنهما ربما لم تكونا ممرضتين بل طبيبتين.. دلفت الاثنتان إلى داخل البناية فدلكت الشمس فجأة، وظهرت جنان تقول:

-حالته خطرة.. لقد أوشك على الموت.

قالت يمامة:

-هل سينجو ؟

قالت جنان :

-الأطباء في الداخل يجرون عليه الضربات الكهربائية.

سألتها يمامة بين الجد والمزاح:

-وهل ينقطع الكهرباء في المستشفى؟

لم تتفاجأ جنان للسؤال وقالت:

-المستشفى مزودة بمولدة.

ثم تنهدت وصمتت فسجا الليل وأصبح المكان مظلما.. قالت جنان :

-لا داعي لبقائك .. خذي السيارة واذهبي للبيت وأخبري أهلي بأني باقية في المستشفى لحين الاطمئنان عليه..

سألتها:

-ألا تحتاجون شيئا من البيت؟

قالت:

-كلا.. ولكن ربما سنحتاج إلى بعض الأدوية من خارج المستشفى سأتدبر أنا أمرها.. اذهبي أنت.

وقبل أن تذهب قالت، لأم عمر بأن لا تقلق على شيء لأنها ستأخذ الأولاد معها إلى البيت إن تعذر مجيء خالتهم إليهم.. فدمعت عينا أم عمر وقالت:

-هل سيعيش عمك كاظم يا يمامة؟

قالت لها يمامة وهي تشد على يدها:

-بإذن الله.. أدعو له من كل قلبي بالشفاء.. ولكني قبل أن أعود إلى البيت سأجلب لك العشاء من مطعم قريب..

قالت أم عمر ودموعها تنهمر:

-أستحلفك الله بأن لا تشتري شيئا.. فلن يمكنني تذوق الزاد وأبو عمر على هذه الحالة.. أريد شايا فقط.. والدكتورة جنان الله يستر عليها، قالت إنها ستأتي به من مطبخ المستشفى.

ما أن غادرت يمامة ردهة الطوارئ باتجاه مدخل المستشفى الرئيس المؤدي إلى عيادة المستشفى الخارجية حتى استوقفها حارس البوابة واستفسر عن هويتها، وعندما قالت له إنها قريبة الدكتورة وإنها تقود سيارتها إلى البيت لوجود حالة طارئة، سمح لها بالخروج بعد أن أكد روايتها حارس آخر يبدو أنه كان قد رآهم وهم يدخلون إلى المستشفى سوية.

فتحت المذياع بعد اجتيازها للبوابة... فجاء صوت سميرة سعيد وهي تغني « شروق وغروب » .. ومرة أخرى شروق وغروب « وما بين الاثنين .. سيأخذنا الشوق إلى ما وعدنا به القدر.. ما جعله يبدو لنا اختياراً.. وكيف يكون اختيارا إذا كانت دقيقة تأخير واحدة تستبدله بخيار آخر ؟..أيكون أمكن لكاظم البغدادي أن يصل إلى المستشفى حيا لو أننا خرجنا نبحث عن سيارة أجرة تقلّه إلى المستشفى، أيمكن أن يكون قد وصل إلى المستشفى بهذه السرعة، لو لم تكن جنان معنا ولو لم تسهل وصوله إلى غرفة الانعاش بأقل عدد ممكن من دقائق التأخير؟... أيّة مصادفة أخرى كانت ستجعل حياته ممكنة!؟ نافذة تفتح أمام إشارة خضراء تشتعل.. أم إطار قوي لا ينفجر.. أيجعلنا ذلك كله نكف عن القلق على مصائرنا منذ البداية أم نزداد قلقا عليها؟... أتكون لدينا العيون والأيدي والحواس لتلافي أمر خطير سيحدث، أم ندع الأمور تجري في أعنتها كي تتغير من حال إلى حال بين شروق وغروب؟..

## -5-

حبشت أغصان العنب وتمددت فروعها في كل مكان، ثم عثكلت على السياج وأجهشت عن عناقيد من الحصرم.. تحيط بها أوراق لا تكف عن التساقط.. قالت الخالة:

-والآن ما هذا ؟ خلصنا من مطارقهم ودجاجهم والآن يرمون ورقهم اليابس علينا..

وظلت تدمدم في غدوها ورواحها.. وتغدق أمواجا من المياه على ورق العنب لتزيحه عن الطريق.. فيعود للتساقط من جديد... استنجدت بيمامة ،فقبلت شفتيها وشعرت بالرغبة في التحدث الى مثنى من جديد.. كانت تتحاشاه منذ آخر مرة تركته في شارع الكفاح وعادت الى البيت.. ولم تعد تمني نفسها به.. ولم يكلف نفسه عناء السؤال.. ولكن بعد سبعة أيام من دمدمات الخالة وأصوات تذمرها العالية. مد رأسه من خلف السياج بعين سليمة وعين منتفخة وقال ضاحكاً:

-لدغتني نحلة في عيني..

ضحكت يمامة.. ثم تحفظت على ضحكتها وتاهت في بلاهة الصمت..

فقال:

-ما هذا ؟ ألا تسألين عنا؟.. هل نحن في تلفات الدنيا أم ماذا ؟

تحسرت وهي تجاهد كي لا تضحك من منظر عينيه ثم قالت له:

-ضيافة العرب ثلاثة أيام... وأنا ضيفتك ثلاثا.. مرة كذبت ومرة كذبت ومرة تحامقت..

أطلق ضحكة عالية وقال:

-لقد كنت أمزح في المرتين.. أما في المرة الثالثة.. فإني لم أتحامق.. كنت أريد أن تشاهديني على حقيقتي.. فإن كانت هذه الحقيقة لا تعجبك.. فهذا شأن آخر..

احتارت ماذا تقول له.. أتسأله إن كان قد اشترى (ورقاً)[1] في ذلك اليوم من شارع الكفاح الذي قال فيه إن (السوك نازل)؟.. أم تسأله ما إذا كان الورم الذي حل بعينه مزحة أخرى من غرائب المزاح؟.. كانت الأزمة مع أمريكا قد ابتعدت انتهت ودخلت مرة أخرى إلى متاهة.

فقالت له تماحكه:

-وكيف حال السوك.. صاعد.. أم نازل؟

بنا على وجهه مرح واهتمام فقال:

-واكف.. منذ أشهر وهو لا يتحرك.. ولكن عجبا تسألين..

قالت:

-لماذا العجب؟ حياتنا كلها سوك..

(1) ورق في العامية العراقية تعني دولارات.

راح يسحب بعض أغصان العنب المتشابكة على السياج ويضعها إلى جانبه.. فلا يبقي على أثرٍ لشيء منها في حوزة الخالة.. قال وهو منهمك في عمله:

-إذن طارت كتاكيتي مرة أخرى وحطت على أشجاركم؟

قالت يمامة:

-كنت أجدها تقف قرب نافذتي أحيانا.

فتح عينيه على سعتهما وقال:

-حقا؟..

ثم خفض صوته قليلا وقال يضحك:

-عافاها الله. إنها أكثر شجاعة مني إذن..

موجة صغيرة واحدة كانت كافية لتبديد ما تعكر.. قالت له:

-حقاً؟.. وماذا كنت تفعل لو كنت مكانها؟

ضحك بشدة ثم قال:

-كنت سأجد نافذة مفتوحة وأدخل منها إليك..

وموجة أخرى كانت كافية في تلك اللحظة لتجعل صفاء الماء يعود إليه.

-أتنامين مبكرا؟

قالت:

-مثل الدجاج.

قال:

ــوماذا تفعلين بكل هذا النوم؟

قالت له:

ــأحلم.

ــقال:

ــبمن؟

قالت:

ــ بكثير من الناس.

قال:

ــ هل أنا منهم؟

قالت:

ــرويدك.. رويدك..

قال وقد أصبح الغبار المتطاير يغطيه:

ــلا أريدك أن تحلمي بي على أية حال.. أريدك أن تجدني أمامك وأنت مستيقظة.

أرادت ان تتعابث معه أكثر فقالت:

ــوأنت.. بمن تحلم؟

ابتسمت عيناه.. ونطقتا بما هو أكثر من المكر.. ثم ضحك وقال:

-بحبيبتي طبعا.

قالت...

-ومن تكون؟

وضع مرفق يده على حافة السياج.. واستند بفمه على قبضة أصابعه.. ثم راح ينظر إليها بصمت ويبتسم.. وابتسمت هي أيضا وأمالت رأسها باستفهام وقالت:

-ها؟

ظل صامتا ينظر إليها.. ويطرق شفتيه بقبضته وكأنه يتوعدها، وعندما طال صمته ونطق بلا صوت، نادت الخالة بصوت عصبي من الداخل:

-ألم يفك الجيران اشتباك العنب بعد؟

أطلق ضحكة مجنونة عالية.. ثم فرد ذراعيه على سعتها وقال:

-بل إنه للتو بدأ.

# عشر حبات فاصوليا

## -1-

لم يمت كاظم البغدادي .. إنما خرج من المستشفى سائراً على قدميه وهو صامت تماماً لا يكلم أحداً ولا يرد على أحداً إذا ما وجه الحديث إليه، منذ أن كادت الجلطة أن تؤدي بحياته، حتى أدرك خطورة الانفعالات على قلبه .. فسلم أمره إلى الله الواحد القهّار وآل إلى الصمت . بعد خروجه من المستشفى بيومين كانت ابنته فاطمة تقف عند باب بيت يمامة تحمل صحن هريسة بيد ورغيف خبز باليد الأخرى.

قالت :

- الهريسة مال عاشور .. وخبز العباس على سلامة أبي ..

قالت فاطمة مرة أخرى:

- أخذت طبق الهريسة فقط .. خذي الخبز.

ارتد بصرها إلى الطبق وأخذته . وعندما رفعت يمامة نظرها مرة أخرى للتأكد مما رأته، لم يكن قد تبقى أي أثر .. شكرت فاطمة ثم أغلقت الباب بقوة فانكسر أظفر إبهامها. قالت الخالة:

- أصبحت لا أرى حتى وأنا أرتدي النظارات .

ثم ناولتها الخيط والإبرة وقالت:

- هلا لظمتها لي؟

رفعت يمامة الإبرة إلى الهواء .. فغاب سمها في الهواء وتقدم

مثنى إلى خارج بيت هنوة وانسل ملتماً على نفسه كقنفذ وسار باتجاه الشارع العام .. دخل الخيط بيسر إلى الثقب، وكان لونه أسود. قالت الخالة:

- ما شاء الله . نظرك ستة على ستة.

قالت يمامة:

- فاطمة جاءت بهريسة عاشوراء وخبز العباس على سلامة أبيها.

قالت الخالة:

- المسكين .. ذبلان.. ولا أحد يسمع له حساً في المحلة .. أين صياحه؟ أين عراكه مع الرائح والغادي؟

قالت يمامة:

- الصوت العالي أيضاً مضر بالصحة.

قالت الخالة:

- أين كان .. وأين أصبح؟

ترى ماذا كان يفعل مثنى في بيت هنوة؟ .. قال لها من تلقاء نفسه وهو يجعل من مقص يستعيره حجته لطرق الباب:

- عندهم أشجار مريضة.. أراد تحسين استشاري في الموضوع.

ضمنت يمامة مع نفسها أنه قد رآها في الباب عندما كانت فاطمة توزع خبز العباس .. وأنه قد أعد ذلك السبب المقنع لحالة احتياجه اختلاق العذر ..ولكن من طلب منه الاعتذار .. أو غيرها .. ؟

قال يؤكد العذر:

- ولكن هذا هو ما حدث فعلاً..

في ذلك اليوم نفسه .. لم تتحاش يمامة زوج هنوة عندما رأته عائداً من دكانه .. تعمدت إلقاء التحية عليه . فاستغرب تحيتها وبالغ بالرد عليها .. أوشكت بالفعل أن تسأله شيئاً .. ولكنها امتنعت في اللحظة الأخيرة ولم تفعل وواصلت طريقها باتجاه البيت .. وواصل هو طريقه باتجاه البيت بعد أن تجاهل كاظم البغدادي الذي كان يترنم بأغنية قديمة احتفل بها مع نفسه بعد فوز منتخب الشرطة بكرة القدم قبل أيام. غياب صوته في المحلة اصبح واضحاً والحرقص الذي كان يطوح به من معركة إلى أخرى ومن نقاش إلى آخر.. قد انطفأت جذوته من الخارج فقط.. أما تحت الرماد فكان البصيص لا يزال موجوداً لا يراه إلا من يريد الاقتراب . كان قد خرج من المستشفى ليحدث نفسه بدلاً من أن يحدث الآخرين ويدمدم طيلة الوقت كلمات خافتة تقول زوجته فائقة إنه يتعارك بها مع الآخرين.. ولكن بدون صياح. وعندما حان موعد دوري كرة القدم، بذلت زوجته مجهوداً خارقاً لكي تجعله يتابع المباريات بهدوء وبلا انفعال ولكن مجهوداتها تلك ضاعت سدى بضربة جزاء حاسمة سددها في مرمى نادي الصليخ لاعب من نادي الشرطة.. في آخر دقيقة من آخر المباراة.

ومنذ ذلك اليوم، لم يصح كاظم من سكرته بفوز منتخب الشرطة بكأس الدوري لأول مرة منذ ثمانية عشر عاماً .. فهاج وماج في البداية وراح يهتف "فلتسقط أمريكا .. فلتسقط

أمـريكا" دونما سـبب واضح .. ثـم بعـد أن هدأ وامـتص الفـرحـة تماماً.. تحولت دمـدمـاته المبـهـجـة التي يتـعـارك من خـلالهـا مع الآخـرين، إلى غناء متـصـل يتـجـاهله الجـيـران أحـيـاناً أو يغـالبـوه بالابتسام تماما كـما كانوا يفعلون في السابق عندما كانوا يسمعونه وهو يقول:

- هيه هاي اشتراكية.

فـارق السن بينه وبين زوجـتـه لـم يتـضـح إلا الآن بعـد أن تـعب قلبــه وشــاخ وأوصله إلى الموت.. خــرجت تدخـله إلى البــيت وتسحب ابنها عمر آخر العنقود من الشارع قبل أن تقفل الباب.

قالت ليمامة عندما رأتها تغلق باب البيت بالرتاج:

- ألم تري عمر في الجوار.

قالت يمامة:

- كلا.

قالت فائقة:

- سينقطع الكهرباء بعد قليل .. وأخشى عليه من الظلام.

قالت يمامة وقد لمحته من بعيد:

- هاهو قادم.

جاء يدرج على دراجته، فقالت له يمامة:

- الامتحانات على الأبواب .. ألا تقرأ قليلاً؟

قالت أمه:

- هيا أدخل إلى البيت.

مجموعة خرز ملونة لظمها داخل الأسلاك الحديدية لعجلات الدراجة.. كانت تتراقص كالقلائد في محاورها أثناء سير الدراجة.. ولم يكن عمر قد شبع من النظر إليها كلما قاد دراجته بالرغم من أنه قد لظمها منذ أكثر من أسبوع. توقف فجأة عن النظر إليها ورفع عجيزته عن سرج المقعد ووضع قدمه على الأرض وانتصب صائحاً:

- لج يوم[1] هم زين اتذكرت.. معلمة الحساب تريد عشر حبات حمص وعشر حبات باقلاء وعشر حبات فاصولياء..

---

(1) يوم: أمي.

-2-

- وما أخبار المجمدة؟

- لا زالت في التصليح...

- ولكن هذا وقت الباقلاء .. ألن تفّرزني؟[1]

- ماذا أفعل .. كل ما استطعت اللحاق عليه عدة كيلوات وضعتها في بيت الجيران ..

- والطماطة والفلفل والثوم والكمأ والكبب؟

- لا تزال في مجمدة بيت أهلي ..

تشابكت خطوط الهاتف بعد أن مضت سنوات طويلة وأحشاء البدّالات تذوي وتتآكل دون أن يتم استبدالها بقطع غيار مستوردة وعندما تنقطع الكهرباء وفق جدولها المبرمج، ويرفع الضاجون من الظلام سماعاتهم لقتلٍ الوقت الضائع بالكلام، تصبح أحاديثهم وثرثراتهم ملكاً مشاعاً لسماعات هواتف الجيران المرفوعة هي الأخرى بانتظار أن يقطع أحد ما مكالمته فيحصلون على خط غير مشغول.

قالت الخالة:

- ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾.

(1) تفرزني: تجمدي أو تحفظي بواسطة التجميد.

فلما استوضحتها يمامة الأمر، قالت إنها كلما انقطع الكهرباء وخرجت تسقي الحديقة وجدت ابنة هنوة واقفة بالباب وهي بكامل عطرها وزينتها وكأنها تستعرض مفاتنها للغادين والرائحين.

كان القمر بدراً .. والظلام يشع بنور بعيد خافت كأنه مصمم خصيصاً بهذا القدر من الخفوت والندرة.. ولم تكن المباراة النهائية لكأس العالم بين البرازيل وفرنسا قد انتهت، عندما انقطع التيار الكهربائي، فأصبح لزاماً على يمامة أن تغلق سماعة الهاتف وتصرف النظر عن إجراء مكالمة مع جنان، بعد أن أخذ عدة رجال ينقلون المباراة نقلاً حياً عبر الهاتف..

– يمعوّد هاي مؤامرة ضد العرب ..

– ما شفت التحكيم؟ ضربة الجزاء مو صحيحة.

– كان المغرب صعد للدور الثاني ..

– لك ها .. ها .. ها ..!!

– شكو؟

– گول.

– منو؟

– زيدان.

– شلون ورطة هاي .. زيدان عربي .. وآني أشجع البرازيل..

– هذا حكم اللعبة ..

– ... الحكم ....

– تحيُز يا معّود . .

– . . . ألمانيا

– زيدان . . .

– كَول . . . . .

أغلقت يمامة سماعة الهاتف أطرقت وقررت أن تذهب إلى جنان بدلاً من مكالمتها بالهاتف . . من بعيدٍ كان محل حسن يضيء بنور فانوس خافت . . يجفل أحياناً أو يغيض ثم يعاود الاشراق مرة أخرى . . قالت خالتها إن جنان قد جاءت في الصباح وتركت بطاقة دعوة لحضور عقد قرانها . . فتحتها يمامة فوجدتها بيضاء ناصعة البياض تحف بها من الأطراف قلوب بيضاء جاحظة عن سطح الورقة وغيوم صغيرةٍ منتفخة تزين حافات البطاقة وتجعلها تبدو أكثر نظافة وبياضاً . . في البطاقة عريسان مرسومان سعيدان وضاحكان . . وملابسهما أنيقة، أخبرتها جنان أن حسن هو الذي صمم البطاقة، فحدست يمامة أنه أراد أن يعبر عن فرحة المناسبة بغض النظر عن الأنواء والمتاعب التي أحاطت بها، قالت لها يمامة بين الجد والمزاح :

– كم كان مهرك ؟

قالت جنان :

– ضحكة من القلب .

قالت يمامة :

– وهل قبضته كاملاً ؟ . . .

فصمتت ولم تجب ..

حسن قال إن البطاقة تقليدية إلى حد ما، لكي تعبر عن الفرح بشكل مضبوط .. وأكثر ما يخصه فيها هو تصميم حرفي الجيم بوضعهما متعاكسين على شكل نصفي تفاحة أو نصفي قلب متقابلين .. يكملان بعضهما بعضاً ليصبحا قلباً واحداً أو تفاحة واحدة. كان النفط في الفانوس يوشك على النفاد .. فأطفأه واستبدله بلوكس ساطع كأنه شمس مشرقة..

أصابع يمامة كانت تمسك بالبطاقة البيضاء وعيناها لا تزالان تتأملان ديباجة الدعوة والأشكال الجميلة المحلقة حولها. نظر حسن إلى أصابعها ملياً ثم قال:

– لماذا تطيلين أظافرك يا يمامة؟

قالت إنها تطيلها لأنها تعينها في عملها .. فقط تقشط بها شيئاً زائداً من اللوحة أو تدفع بها لوناً فوق لون.

عاد وقال وهو مطرق:

– ما أخبار مثنى؟ هل ترينه؟

قالت وهي تنظر إلى أظافرها – نعم أحياناً.

ثم أضافت وهي تعاود النظر إلى البطاقة :

– ولكن ما فائدتنا وفائدة الفنطازيات التي نرسمها للناس .. نحن بعيدون عنهم .. وعاجيون .. وفائضون عن الحاجة .. هذا زمان السوك .. أو كما يقول مثنى .. زمان الورق .. والأوراق .. والتوريق...

أخرج حسن رزمة نقود من جيبه وسحب ورقتين منهما وقال:

- كلا الفن ليس ببعيد عن الناس .. انظري إلى هاتين الورقتين، أيهما أجمل؟ .. كل واحدة منهما هي لوحة بحد ذاتها .. ليس الفن في المعارض فقط.. الفن موجود حتى في هذه اليافطات الصغيرة والكبيرة التي ستعلق على جدار عمارة أو واجهة صالون حلاقة أو بالكونة طبيب .. ثم أشار إلى اللافتات الكثيرة المرصوفة في ركن من محله وقال:

- أتعتقدين أن نشرة مدرسية يرسمها خطاط وفيها فن تراه عيون الأطفال أفضل .. أو لوحة معلقة على جدار بيت ثري لا يراها أحد أفضل؟

قالت يمامة:

- لا يمكن أن تطلب من كل فنان أن يتحول إلى خطاط لرسم اللافتات والنشرات المدرسية .. يا إلهي أي حال سينتهي إليه الفن لو تحول كل فنان إلى خطاط أو مصمم حرفي؟

قال:

- لا أطلب هذا بالضبط .. ولكن كي يكون الفن مؤثراً عليه أن يكون قريباً من الناس .. نصب الشهيد مثلاً ..صانعه هو فنان الناس حقاً .. لقد صنع أعجوبته ووضعها تحفة للناظرين .. حتى من لا يفهم التحفة سيدوخ عندما ينظر إليها .. الكل انبهر بها، الأمي والعالم والصنائعي والطبيب والمهندس والسائق وتلميذ المدرسة وهذا هو الفن الحقيقي الذي يؤثر في الناس .. حتى وإن

كان يقف فوقهم .. أن يجمع بين نقيضين: يكون خالداً .. ويؤثر في العابرين.

قالت يمامة:

– هذا امتياز النصب والتماثيل فقط.

قال بحزم وهو يرفع من أمامه قنينة عسل مرسوم عليها علامة تجارية بسيطة:

– بل إنه امتياز لكل فنان .. الذي صمم هذه العلامة فنان كبير وأنا أحترمه جداً حتى وإن كان مغموراً . فهو يؤثر في ذائقة الناس عبر أشياء بسيطة يرونها يومياً في مطابخهم .. فإذا ما اعتادت عيونهم فنه الجميل فلن ترضى بعد ذلك بأقل منه ..

شعرت يمامة باللهفة لكل الكلام الجميل الذي كانا يتبادلانه في طريق ذهابهما اليومي إلى الأكاديمية ..كلام مثل هذا .. وغيره كثير متشعب ولا ينتهي .. بعضه مهم والآخر لغو أخذته الريح وأودعته الفيافي والشعاب .. ولكن النوافل تبقى في النهاية .. حتى وإن لم تُقل . ضحكت يمامة وقالت:

– هل تعرف يا حسن .. أن أناملي تحركت من جديد وحنت إلى لون يدب ولوحة تتشكل .. أتذكر يا حسن .. اليوم الذي خرجنا فيه جميعنا من البيوت، في عز صباح جميل، ووقفنا في الأبواب ناظرين إلى جمال في موكبه الحاشد الراقص الذي عاد به من أسره في ايران .. ذلك المشهد جعلني ارسم أهل الزقاق جميعهم أحياء وأموات وهم يقفون بين الصحوة والنوم ينتظرون

اكتمال حدث ناقص .. كأنه لم يكتمل إذا هم لم يخرجوا من بيوتهم يروه ويشهدوا اكتماله..

فخرجوا بما فيه الكفاية لجعل لحظة عابرة تتمرد على خرقة النسيان وتعلق في ذاكرة الزقاق إلى الأبد .. وقوفهم في الأبواب نسج تلك اللحظة العابرة من اليقظة مع سنوات حلم طويلة .. فخلّدها وحبسها في زمن واقف .. كأنهم ما دخلوا ولن يدخلوا أبداً.

قال حسن:

– هل سترسمين أخيراً روزنامة أيام حقيقية..

قالت يمامة:

– ربما .. وقد فكرت أن أسميها أعواد بخور وهو اسم أوحته لي نحافتنا الشديدة وقاماتنا الفارعة التي جعلتها في اللوحة تبدو مثل أعواد البخور .. كلنا في اللوحة متشابهون مثل أعواد البخور وكأننا جموع لا مفرد لها.

## -3-

مـرة ثانيـة ... وثالثـة .. ورابعـة .. أكـد لهـا مـثنى أنه لـم يكـن في بيت هنوة إلا من أجل البق الدقيق.. ولم تفـهـم يمامـة إلحاحـه ذلك تماماً ، بيد أنها لم تضق به، في المرة الرابعة قالت له:

– إنك ... كـمـا أنت .. أقـصـد كـمـا رأيتك وعـرفـتك طيلة الأشهر الماضية .. هل حقيقي أم ..

وأرادت أن تقول « زائف » ولكنها عدلت عن ذلك وقالت:

– أم غير حقيقي ..

ضحك لها بعينيه وقال:

– أنتم الفنانين .. أمعـقـدون هكذا دائـمـاً؟ ألا تحـبـون الأجـواء الماطرة .. العواصف .. الرعد .. الأعاصير ..؟

قالت:

– بل نحن أكثر الناس حباً للحياة .. ولكن أريد أن أفهمك ولا أدري إن كنت ستفهمني؟

قال وضحكته تشرق بالمكر:

– حاولي ..

رائحة السرخس والبتموس والأوراق المتحللة بين طبقات الطين المحفور، أعادت إليها ظهيرة أول مرة جاءت إليه في المحل قبل عام، كانت قد جاءت من أجل اعتذار .. وخرجت بأمس الحاجة إليه

.. واليوم كانت قد جاءت إليه من أجل قنينة دواء فوجدت نفسها تدخل إلى عالمه الظلي ذاته .. وتتحدث.. وتشتبك معه في حوار غريب آخر من حواراته المبتورة التي لا تفضي إلى يقين.

قالت:

– هل كنت صادقاً مع نفسك وأنت في شارع الكفاح؟.. أم كنت تخونها؟

– أخون من؟

– نفسك .

تلاشت ضحكة المكر على شفتيه .. وحلت محلها ضحكة من نوع آخر .. ضحكة فيها أكثر من معنى وأكثر من إيحاء .. السخرية مع الألم ..القهر مع اللامبالاة .. تدافعت تلك المعاني تتقدم وتتأخر بين بعضها البعض حتى اختلطت جميعها في النهاية وانفجرت عن سؤال قاله بعصبية:

– وما الفرق؟

قالت:

– أن تربح نفسك أم تخسرها.

صمت .. ثم ضحك .. ثم قال:

– بسيطة .. سأكره نفسي وأتظاهر بأني أحبها .. لا أدري هل هو سارتر أم كامو من يقول "عاطفة تعمل وعاطفة تعتمل سيان" أي أنك إن أحببت أحداً وإن تظاهرت بأنك تحبه فالنتيجة واحدة ثم ابتسم هازئاً وقال:

– أنا وإن كنت أحمل البكالوريوس في الزراعة .. إلا أنني أيضاً كنت أقرأ الكتب في مطلع شبابي.

أطرقت .. ثم ابتسمت .. ونظرت في عينيه:

– والآن، أين الدواء؟ ..

قال باستغراب:

– ماذا؟

قالت:

– الدواء؟

نظر إليها:

– أي دواء؟

قالت:

– الدواء .. دواء الخنفسان.

أصابعه تحركت على الفور باتجاه رف من رفوف الحائط وقال ساخراً:

– تريدين سماً لها أم دواء؟!

قالت:

– اعتدنا أن نسمي السم دواء..

صمت هدير المكيف فجأة بفعل انقطاع الكهرباء، فقالت:

– السم يمكن أن يكون دواء أيضاً...

لا أحد يعلم على وجه الدقة إن كانت موجات الحشرات السود التي هاجمت البيوت بعد الغروب، خنفساناً أو جراداً أو صراصير غطت الحيطان والأبواب وأسيجة الحدائق بالآلاف وسدت على الناس منافذ الخروج فاتقوها بسد المنافذ بالخرق وأوراق الصحف وقطع العجين، ولكنها كانت تدخل من أصغر الشقوق وأضيق الفتحات، كل تنطح الآذان والأنوف والأفواه وتسقط في أواني الطبخ وتندفع نحو طيات الملابس.

قيل إنها موجة بيوض تخلقت على الأرض بعد أن رشقتها الطائرات الأمريكية من الأجواء العليا .. وقيل إنها غيمة يرقات حملتها رياح السموم هبت من شرق الصحراء. ولم تكن السحالي الرابضة على الجدران قد حلمت بمثل هذه الولائم السادرة الممتدة على شكل بساط يغطي وجه البسيطة من جدار إلى آخر .. فخرجت من أوكارها بالعشرات ، وسمنت في غضون ساعات .. واكتمل الغضب الرباني.

– لولا رحمة الله .. لأكلنا خنفساء مقلية سقطت في سمن المقلاة والدنيا ظلام .. ألو ..

– خنفسان؟ لا .. إنه كالجراد .. ألو

– كنا ننام على السطح فهربنا إلى الغرف .. ألو .

– نعم .. كانت مقطوعة .. ألو ..

– لا .. لم أنم لحظة واحدة .. ألو ..

– تحت الدوش .. ألو

ألو . .ثم ارتفع صوت آذان العشاء من مكان ما ألو . . تلاه صوت بعيد لامرأة تتحدث مع رجل وتطلب منه أن تأتي إلى محل عمله ما دام المجيء إلى البيت متعذراً. لم يكن الصوت واضحاً . . ولم يكن سماعه بيسر ممكناً مع استمرار حديث المرأتين الأخريين عن الحشرات الطائرة التي هاجمت منزليهما في الليل . .

– أحقاً؟ ألو . .

– أقول لك دخلت واحدة منها تحت منامتي . . ألو

– أماه . . أماه . . وماذا فعلت؟ ألو

– ماذا فعلت؟!! أخذت أتقافز هنا وهناك كالمجنونة!!! ألو

ولم يكن ثمة صوت في البدء يرد على المرأة الأخرى ذات الصوت البعيد . . فأمعنت يمامة ضغط السماعة على أذنها وهي تضع يدها على لاقطة الصوت تحاول التقاط المرأة ذات الصوت البعيد . . ولكن حديث المرأتين عن فعاليات الخنفسان جاء وارتفع مرة أخرى:

– وكيف أخرجتها؟

– ربضت تحت حمالتي الصدرية وأخذت تشكني من جهة الإبط . . فرحت أقفز وأصرخ وأرفس الأرض بقدمي.

– يا إلهي . . هذا فيلم من أفلام الرعب . . التالي؟ أطلعت؟

– رفعت . .ألو

– ألو . . ألو . . ألو . .

وعلت مرة أخرى أصوات الباحثين عن خط مفتوح في عالم مفتاحه كلمة واحدة يجب أن تقال هي « ألو » .. وأخذ صوت المرأتين يخفت شيئاً فشيئاً ويعلو بدله صوت رجالي :

– اسمه محل الوردة البيضاء .. محل لنباتات الظل والعدد الزراعية . قرب تمثال أحمد حسن البكر ..

واتضح الصوت الرجولي لوهلة ..ثم قال بعد ذلك :

– نعم هذه الفولكس واكن لي ..اشتريتها قبل أيام .

قالت المرأة :

– سآتيك يوم غد إلى المحل .

شكها الصوت هذه المرة في مكان ما في رأسها، وأذنها أصبحت تؤلمها لشدة ما كانت تضغط السماعة عليها، وفي اللحظة التي بدأ فيها صوت المرأة البعيد يقوى ويتضح فضت نغمة كالإطلاقة ورغم الاشتباك بين الخطوط المشغولة جاءها الخط الشاغر الذي كانت تطلبه .. تك وانفجر المصباح المشتعل .. تك ثم انقطع التيار الكهربائي .. تك وحل ظلام دامس .

-4-

استيقظت من نومها على هدير سيارة مثنى الفولكس واكن لتجد نفسها ممددة تحت الغطاء وجسدها يرتج مع ذلك الهدير الذي يشبه صوت طائرة سمتية تطير بارتفاع منخفض . استغربت لماذا لا تناديها أمها وتكرر ندائها كما تفعل كل يوم حتى تتأكد من استيقاظها أو تسمع وقع أقدامها على درجات السلم. كانت متلذذة بهذا التأخير فعادت إلى نومها في الحلم خمس دقائق أخرى تجدها دائماً، بعد الاستيقاظ، ألذ ساعات النوم الطويلة .. الأحلام التي تحلمها في تلك الدقائق تتذكرها بقوة ربما لأن حلاوتها تتأجل حتى النهاية مثل رشفة شاي أخيرة . ترى الوجوه فيها بوضوح شديد.. ثم تتذكرها بوضوح أشد .. ودائماً هناك علو أعوج وبلكونات بلا أسيجة .. وسلالم بلا محجرات .. ورغبة بالعبور من مكان عال إلى مكان عالٍ آخر وثمة هوّة تفصل بين المكانين، ومعبر المشاة مقطوع أو اسفنجي أو مموه بحيث يبدو وكأنه يعود إلى النهاية الأخرى، وفي الوقت ذاته لا يقود إلى أي مكان.

نادتها أمها في الحلم مرة أخرى .. فاستيقظت على صوت النداء فتحت عينيها فكان هدير الفولكس واكن لا يزال يترجع ويتردد في الجوار .. بجامتها الواسعة تكورت تحت ظهرها .. مع ذلك لم تشعر برغبة في تعديلها، وخمنت أن رنين المنبه لم ينطلق وأن جميع من في المنزل كانوا نياماً .. وخمس دقائق أخرى لن

تؤخرها كثيراً عن المدرسة .. حلمت هذه المرة بأنها ترتدي خفيها وتهبط السلم وتغسل وجهها ثم تصعده ثانية لترتدي ملابسها وتصبح مستعدة للذهاب إلى المدرسة ..جعلها ذلك تشعر بالارتياح ومنحها لحظة نادرة من الإحساس بالسعادة .. ولكنها فتحت عينيها بعد قليل لتجد هدير السيارة الفولكس واكن لا يزال يرتج في الفضاء ويملؤه بصوت مروحي سادر .ماذا يسخن هذا الجار؟ سيارة أم جبل جليدي؟ سقطت عيناها على الساعة الجدارية فلم تكن قد مضت سوى دقيقتين على الاستيقاظ الأول.. وأمها اعتادت أن تناديها قبل الموعد بخمس دقائق، هكذا توصيها دائماً لتستمتع دائماً برشفة النوم الأخيرة فتمنحها حلاوتها بكرم بالغ .. ولكن أمها لا تناديها اليوم .. استسلمت لنعاسها مرة أخرى في اللحظة التي أوشكت فيها أن تدفع الغطاء فموه عليها الحلم مرة أخرى بأنها هبطت .. وأنها اغتسلت .. وأنها ارتدت ملابسها وأصبحت جاهزة للذهاب إلى المدرسة ولكن النوم سرقها هذه المرة ولم تستيقظ إلا بعد ثلاث ساعات. فتحت عينيها فلم تسمع هدير سيارة الجار الفولكس واكن.

لم تكن أمها تناديها .. كانت الساعة تشير إلى العاشرة .. نهضت مخضوضة من نومها ودفعت الغطاء بسرعة فلم يسقط على الأرض بل كأنه لم يغادر جسدها قط ..لم يسبق لها أن تأخرت عن مدرستها كل هذا التأخير .. لم يسبق أن نامت بعمق كل هذا النوم .. نادت على أخوتها فلم يجبها أحد نادت

على أمـهـا فلم تجب . .نادت على أبيـهـا فلم يجب مضت إلى المطبخ، فكان المطبخ بارداً يتمـوج برائحة طعام بائت متروك على المنضـدة .. إبريق الشـاي في المغـسلة، ومـدفـأة النفط مطفـأة .. وإفطارها متروك على المنضدة كما لو كانت قد مضت عليه عدة أيام وهو على تلك الحـالة .. البـيض مـخـفـوق بسـمن جـامـد .. ءالشـاي راكـد في قـعـر الكوب يطفـو فـوقـه غـشـاء متـقطع من الحليب.

تساءلت إذا كانت أمها قد تذكرتها فلماذا لم تناديها؟ وإذا كانت قد نسيتها فلمن تركت الإفطار؟ لأول مرة في حياتها تجد نفسها وحيدة في البيت .. وحيدة في صباح البيت .. وحيدة في صمت صباح البيت .. وحيدة في وحشة صمت صباح البيت.. لبثت واقفة عدة لحظات وكأنها تنتظر معجزة تحدث لتعيد هذا الصباح إلى شكله المعتاد ولكن الأصوات داخل البيت همـدت تماماً وحلت مـحلهـا أسـلاك الهـاتف والكهـرباء وهي تصطفق ببعضـهـا البعض وتطلق جدحات كهربائيـة متلاحقـة. تك.. انفجر المصباح المشتعل ..تك انقطع التيار الكهربائى .. تك . وحل ظلام دامس.

## -5-

جاءتها خالتها وقالت:

- إنه جارنا مثنى .. يريد أن يراك ..

رسمت عيناها علامة استفهام، فهربت يمامة منها ووقع بصرها على قدميه اللتين كان يضعهما داخل صندل صيفي أسود اللون تبدو أصابعه من تحتها بيضاء وبالغة النظافة. ظل واقفاً عدة لحظات دون أن توجه له الخالة الدعوة إلى الجلوس. ولما طال وقوفه فتح فمه بصعوبة وقال :

- الحمد لله على السلامة.

قالت يمامة:

- شكراً

انتبهت الخالة إلى وقوفه فدعته إلى الجلوس على كرسي أبعد قليلاً من الكرسي الذي كان موجوداً قرب السرير.. امتثل لدعوتها التي كانت تشبه المر بالابتعاد .. ثم مضت الخالة إلى المطبخ بعد أن تمتمت أنها تغادر لإعداد قدح من عصير بارد.

قال مثنى بعد فترة صمت:

- أخبرني حسن.

قالت له:

- لا شيء خطير .أعتقد أنها حمى داخلية.

كانت نوافذ الغرفة مفتوحة على زقزقة العصافير وقت الغروب، وثمة قطة شهباء كانت تسير على حافة الجدار الذي يفصل بيتها عن بيته من جهة الخلف. كان ينظر إليها بصمت ..هكذا أحست يمامة بالرغم من أنها لم تكن تنظر إليه وإنما إلى القطة الجائعة التي كانت ترفع رأسها في الهواء وتتشمم باحثة عن حشرة تأكلها .. قال:

– ما بك؟

قالت وهي تنظر إلى الغطاء؟

– حمى داخلية .

صمت مرة أخرى .. وملابسه التي ملأت الغرفة بعطر طيب جعلها تشعر بأنهما متلامسان ..حانت منها التفاتة إلى جهة المطبخ ولما وجد الطريق إليه بعيداً وخالياً نهض بسرعة من مكانه ثم انحنى على جبهتها وقبلها وقال:

– حمداً لله على السلامة.

ثم عاد إلى مكانه وترك عطره يتضوع ويتكلم ويلفها بغلالة شفافة من شريط غير مرئي أعقب المفاجأة وطوقها ووضعها داخل ضباب .. جعلها ذلك تجد صعوبة في أن تتحدث أو تتحرك أو تنظر إليه في عينيه .. وجدت نفسها عاجزة عن فعل أي شيء.. فراحت تزيح الغطاء عن صدرها ثم تعيده بحركات عابثة لا معنى لها ..سوى تلمس بصيص طريق إلى المفاجأة التي تحصنت خلف الضباب .. تنهد الصمت بينهما للإفصاح عن كلام كثير إلاّ أن

ما قطعه رائحة برتقال طازج بقدحين مثلجين وضعتهما الخالة على الطاولة الصغيرة التي بينهما ثم مضت، لسبب غير واضح، دون أن تتحدث بكلمة واحدة أو تحاول الانضمام إليهما للجلوس.

قال مرة أخرى:

– والآن ما بك؟

كانت القطة قد تمددت على مكانها فوق السياج . .وربما غفت:

– لا شيء.

ولم تكن تنوي أن تخبره بما سمعته في الهاتف . . أو تعاتبه عليه أو تحاول استقصاء صدقه من كذبه . . ولكن شيئاً ما بينهما كان يسري ويدور مثلما يدور تيار الرسائل بين خلايا أعصاب الجسم الواحد . . وينبئ، دون كلام، بأنه يعرف أنها تعرف، وأنها تعرف أنه يعرف أنها تعرف. قال:

– لا أدري كيف حدست بشيء لم يحدث بعد؟

قالت:

– حدث أم لم يحدث. . ما شأني به؟

قال:

– ليس من جهتي صدقيني . . إنها هي التي .

قاطعته وقد التفتت إليه وكأنها توبخه:

- أنت أو هي؟ ما شأني أنا؟

قال وهو ينظر إلى قدح العصير:

- إنها لا تكف عن افتعال الحجج من أجل الاتصال بي .. ولا أدري كيف أدعها تكف.

قالت:

- لا تدري .. أم لا تريد؟

رفع قدح العصير وابتسم ثم قال متخابثاً:

- إنها أنثى .. وأنا ذكر .. وللطبيعة أحكام.

لم يعد للضباب الذي طوقها قبل قليل من أثر. قالت:

- ألا يوجد عندك حد بين الخطأ والصواب؟

قال وهو يضع قدحه على الطاولة مستفزاً:

- بلى يوجد ولكنه يتغير باستمرار.

تبلل بلعومها بماء مالح. فقالت:

- إذن نحن نسير في اتجاهين متعاكسين..

قال:

- وهل في هذا ما يضر .. ألا يكون هذا هو السر في انجذابنا لبعضنا البعض..

قالت :

– إذا ربطت شيئاً بين سيارتين تسيران باتجاهين متعاكسين فهل يصل .. أم يتمزق ويتحول إلى أشلاء...

أغمض عينيه ثم فتحهما وكأن صبره قد نفد ثم جعل آخر حلاوة الروح تقطر من كلماته وقال :

– لندع المثاليات جانباً الآن يا يمامة .. تعلمين جيداً أني أحبك والآن سأطلب منك شيئاً أريده وأتمناه بقوة .. ومنذ أن وقعت عيني عليك لأول مرة .. إن وافقت فلا تجيبي وإن لم توافقي فقولي لا أريد .

ثم صمت قليلاً ومسح جبهته بباطن كفه وقال :

– هل تتزوجيني يا يمامة؟

كان صوته فسيحاً فيه ضراوة .. واللحية الخفيفة التي نمت وغطت نصف وجهه جعلت الشبه بينه وبين حازم ينمحي قليلاً .. وعيناه السوداوان اللتان أعلنتا هذا الشبه، منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناها عليه أول مرة في عز الظهيرة، تبدوان الآن في حالة ضيق وعصبية. أحست به يمامة سينهض من توه ويصفعها إن قالت له لا أريد .. كانت قد شعرت بالفرح قبل قليل وكانت تريد أن تفرح ..أن تموت من الفرح .. ولكنها بدلاً من ذلك قالت له بثبات :

– من أنت؟

نهض من مكانه بعصبية ووقف حائراً لا يدري ماذا يفعل أو

يقول ولكنه بدلاً من أن يصفعها، كما ظنت أنه سيفعل، قال لها باعتداد:

– خذيني كما أنا .. أو قولي لا أريد.

قالت:

– ألا أعرف قبل ذلك ..من أنت؟

القطة انصرفت، والخالة دخلت تحمل صينية فارغة في يدها، وهي تقول:

– حان موعد الدواء .. هل أخذته؟

ثم نظرت إلى مثنى من فوق نظارتها الطبية .. وانحنت ترفع أقداح العصير غير مكترثة به إطلاقاً ..قال مرة أخرى وهو يهم بالنهوض:

– سلامات.

ثم خرج خطوتان .. وتوقف .. خطوة ثالثة ..وأصبح عند الباب. توقف مرة أخرى ثم استدار .. ليعود إلى مكانه، فتجاوزته الخالة وخرجت من الغرفة وكأنها لا تحتمل الوقوف معه في مكان واحد. وعندما أصبح قريباً من يمامة مرة أخرى جلس على الكرسي حانياً ظهره إلى الأمام باتجاهها وقال:

– أحقاً تريدين أن تعرفي من أنا؟

قالت له:

– نعم أريد.

أرجع ظهره إلى الوراء وابتسم لها ثم ضم أصابعه على شكل قبضة ضرب بها مسند الكرسي . .عيناه اكتظتا بأكثر من معنى . . ولا واحد منها يمكن تعريفه أو الوقوع على جملة مفيدة فيه . .إلا أنها مختلطة جميعاً كما كانت تؤدي إلى أسى. قال :

– حقاً لا أدري ما أنا بالضبط؟ هل أنا روح أم جسد؟ حي أم ميت؟ غائب أم حاضر؟ تركت لي الحرب مع إيران شظية في رأسي . . وأوشكت على الموت . . ثم هبطت من السماء قنبلة مكتوب عليها عشرات الأسماء واسمي من بينها فرشقتني في ساقي شظية منها . . وأسقمت لي ساقي . . عدت مشياً على الأقدام من أرض الكويت . . واستحممت ألف مرة في يوم واحد لأن الذباب الأزرق غطاني وملأ فمي وأذنيّ وبطني وعيني وأنفي . . وعندما أذهب للصلاة على ميت قرب قبره .أجد نفسي ممددا تحت الأرض بدلاً من ذلك الميت . وفي نصب الشهيد أجد اسمي الثلاثي مكتوباً على اللوحة المرمرية مع أسماء الآف الشهداء بالرغم من أنني حي لم أمت وفي البيت أسمع أصواتاً لايسمعها أحد، وأرى أشباحاً لا يراها سواي . . احتميت بنفسي . . فأخذت أسمع صوت نفسي. البيت كان قديماً جداً والبيوت القديمة صامتة صمت الموتى لأن جدرانها تكون امتصت كل الأصوات وتشبعت بها ولم تعد تردد صدى صوت أحد . . فقررت الانتقال إلى بيت جديد لا زالت جدرانه تردد الأصداء كي لا أسمع صوت نفسي . .سألت حسن صديقي عن بيت أستأجره فدلني على بيت دخلت منه إلى نفق ولم أخرج منه لحد الآن . .

في اليوم الأول لوصولنا ماتت هنوة التي قيل أن تحسين أخرجها من الملهى وتزوجها .. وفي العام الأول حيتني ابنتها حياة تحية أنثى لذكر لا تحية إنسان لإنسان .. فرددت التحية .. ولكن ليس بأحسن منها ..ليس لأني لم أكن أرغب أو أتمنى أوأريد ولكن لأني في يوم قائظ كنت قد رأيتك .. وأحببتك .. وتمنيتك .. ولكنك كنت حمقاء ككل النساء .. تتوهمين أن الحب شيء من صنع الملائكة .. ونحن الرجال نتقن العزف على أوهام النساء جميعها، لذلك عندما نحب، نعزف عليها وهماً وهماً حتى تكتمل المصيدة .. كذبت .. وتعابثت ورقصت على أكتاف الخيال عندما رأيتك ترسمين .. وقلت أصطادها، وهي الرقيقة كالعصفور، بنفخة هواء .. ثم وجدتك قديمة كالسلحفاة، فكففت عندئذ وقاومتك طويلا .. لأنك تضيفين إلى الأوهام وهماً آخر هو الصدق .. وعرفت أنك لن تكوني لي .. وأن خيالك سيضيق بواقعي .. فأنزلتك إلى أرضي كي تشاهديني على حقيقتي فتفزعي مني وأكف أنا عنك . ولما لم تنفع المقاومة قررت أن أقع في الحب من جديد، وهذا دواء موصوف للنسيان، فأنساك وأسلاك وأطوي صورتك من مضجعي .. ولا أدري إن كنت تعرفين أن نقطة ضعف كل رجل في الدنيا امرأة فاتنة تغويه فيستجيب طائعاً مسحوراً حتى وهو يعرف أنها تفعل ذلك عن عمد، وعندما ظهرت ( حياة ) أمامي لتغويني حافظت على التراث الرجولي بجدارة .. وحملته على كتفي .. لا أقول إني دخلت التاريخ من أوسع أبوابه .. ولكن هامشاً من هوامشه الميمونة كان بانتظاري .. فقولي لي ماذا أفعل وحياة تطرق

بابي؟.. تريد مني تاريخي بأكمله .. قولي لي كيف أقاومها وأنا أريد الكف عنك؟ .. قولي أنت ماذا أفعل؟!!

أجابته على الفور ، وقالت:

– اتبعها..

نهض من فوره كالملسوع وكأنه أدرك سخريتها ..ثم ارتدى من جديد معطفه الخفي المشبوك من حاصل ضرب الاثم بالعزة وقال:

– الذي غيّرني وغيّرها .. غيّرنا جميعاً.

سحبت يمامة الغطاء إلى ذقنها وقالت له:

– من هو هذا الذي؟!!

اكتمل المعطف الخفي وغطاه كريش الطاووس ..ثم أطل برأسه من فوقه وقال صاخباً بالسخرية:

– الماكير.

أصابعه أخذت ترسم فوق وجهه ضحكات وخطوطاً وحذلقات، ثم كوّر يده على شكل قبة، وضرب بها على صدره وقال:

– فانظري إلى ما صنعت يداه.

وأوشك على الخروج .. فنادته بصوت واهن:

– مثنى.

ربما هي المرة الأولى التي تنطق فيـهـا اسـمـه . تكهـرب .. توقف .. استدار .. ثم قال مندهشاً :

– مثنى؟!! هل هذا هو اسمي حقاً!! أم أني أطير؟!

كادت أن تبتسم .. وأن تطير هي أيضاً ..فقالت له قبل أن تتلاشى :

– تغير.

نفث الهواء من صدره بخيبة وانتفش ثم قال :

– خذيني كما أنا أو قولي لا أريد ..

مثل طفل حردان .. وجوعان .. حرده أكبر من جوعه قالت :

– لا أدري .. ولا أريد

انهزم الحنان .. فقال وهو معتز :

– ولكني أدري .. وأريد .

# جمع، مثنى، مفرد

## -1-

الجو ساخن ينفث هواء كأنه مر فوق لهيب من النيران المشتعلة قبل ان يصل الأنفاس ... مجفف الشعر يشبه سلاحا ناريا.. نظرت يمامة إليه بعد أن يئست من استتباب شعرها فعاجلته بضربة قاضية من طوق أسود جثم فوقه ولملم فوضاه. كانت تشعر بأن ثمة خطأ .. وبأنه يوجد مئة سبب وسبب يجعلها تقول لا أريده.. أصغر سنا؟ محيّر وغريب الأطوار؟ لا تعرف من هو بالضبط ؟أو بالكاد تعثر له على أثر تراه أو تلمسه لمس اليقين؟.. دخلت الخالة تهمم وهي تقول:

-هذه الخنقباز الا تكف عن الوقوف بالباب؟

ثم هوت بوجهها إلى أسفل وقالت ليمامة من تحت نظارتها الطبية:

-وهذا الآخر.. أبو الكتاكيت.. واقف ويتحدث معها بوقاحة أمام الناس.. عيني يمامة.. ما كان يجب أن يزورك عندما كنت مريضة.. إحنا ناس مستورين وهذا يلعب على ستين حبل.

ثم مرقت كالسهم إلى غرفة المعيشة ومضت يمامة خلفها، وكانت لا تزال تلعن الجيران الجدد وتصر على أن الشارع أصبح ملوما. سمعتها سناء فقالت:

-مثنى؟

قالت يمامة: نعم.. قالت سناء: كيف يفعل ذلك وقد طلبك للزواج؟

قالت يمامة بضيق: هل طلبني للزواج؟ كلا لم يفعل.. قالت سناء:

–ألم تخبريني بذلك؟ قالت يمامة: كلا لم أخبرك.. قالت سناء:

–أهو حسن من أخبرني إذن؟!!

دخلت الخالة وهي لا تزال تهمهم وتدين.. وتستحلف سناء بأن يتدخل حسن ويفعل شيئا ..وقالت سناء إن الأمر غريب فعلا، وأن ابنة هنوة هذه كلما رأتها في الزقاق تذكرت حكاية طائر الوقواق الذي لا يستكفي بوضع بيضته العملاقة في عش طائر العقعق لكي يقوم بحضانتها، وإنما عندما يفقس فرخه اللاحم اللئيم يقوم هو الآخر بدفع كل فراخ العقعق إلى الأرض البعيدة ليستحوذ هو على المأوى والقوت وحنان الأم المخدوعة. ثم قالت إن هذه البنت جاءت لا لتستحوذ على بيت أمها عن قصد فقط.. وإنما لتدير رأسها ذات اليمين وذات الشمال علها تجد أعشاشا أخرى تستحوذ عليها وتدفع كل من لا حيلة له على الأرض، شهقت الخالة وقالت إنها تفعل ذلك كعبّ الهواء أو كشرب الماء، وإن ابنة هنوة هذه تبدو كما لو أنها قد جاءت إلى هذا الزقاق مع سبق الاصرار والترصد، لا عن طريق الصدفة كما تقول، ثم استغفرت ربها مثنى وثلاثا، وقالت بما يشبه الهلع:

–رب لا تجعلها علينا غيبة.

أحاقت سناء بموضوع آخر، قبل أن تعلن توبتها هي الأخرى وقالت:

-ولمياء.. ماذا حلّ بها هي الأخرى؟.. فقد أصبحت تقضي نهارها وهي جالسة على الأرض ميممة وجهها شطر الحائط مولية ظهرها للناس.. رجّح أخوها أن القط الذي كانت تواعده قرب الإشارة الضوئية في سوق أبي غريب قد مات.. وأفتى كاظم البغدادي قائلا: إن هذا عرض من أعراض الجنون، واحتفظت هي بالصمت التام الذي كانت تصفع به كل من يسألها، متوسلا أو غاضبا، أن تنهض من مكانها وتمشي وتتحرك مثل باقي البشر.

وقعت عينا يمامة، وهي ترفع استكان الشاي من أمام الخالة، على نقش من الاتمين مرسوم على بياض طبق لاستكان.. وهو واحد من أشياء قليلة ناجية لم تهشمها الأيادي فعاشت وأصبح لها القدرة على أن تحكي وتقص مثلما يفعل البشر. نظرت إليه من بين زخرفة سوداء مرسومة على شكل علامة ضرب فغنى الطبق: إحنا مشينا مشينا مشينا للحرب.. عاشق يدافع من أجل محبوبته إحنا مشينا للحرب هذا العراقي العراقي من يحب يفنى ولا عايل يمس محبوبته محبوبته إحنا مشينا للحرب...

كانت سناء قد توقفت عن الحديث، فقالت الخالة:

-زقاقنا هذا أصابه مس الجنون!.

صينية الاطباق اكتملت فقالت يمامة تحدث نفسها:

ـصبرا يا خالة صبرا. .فكل شيء سينتهي ويصبح على ما يرام. . إن كان ثمة خطأ سيتحامق ويغتال نفسه بنفسه ان لم يغتله الصحيح الصحيح. . وفي النهاية ستتدحرج كل كرة زجاجية إلى مستقر. . صبرا يا خالة. . فلكل شوط مآل. . ولكل مآل حكمة.

تنفست الخالة الصعداء، وسألت إن كان المغرب قد أذن، ثم مضت والوشاح الأبيض على رأسها وقطرات العرق فوق شفتيها وقالت:

ـمتى تخرجان؟

قالت سناء:

ـألن تأتي معنا؟

قالت الخالة:

ـ لا .. بلغاها السلام.

قالت سناء:

ـحسن زوجي سيأخذنا بالسيارة إلى بيتها.

تنهدت الخالة وقالت:

ـوكيف هي الآن؟

قالت سناء ضاحكة:

ـلا أعرف بعد.

قالت يمامة:

–زواجهما يشبه حنينا إلى مكان قديم.. بعد زمان طويل ذهبا إليه ثانية فلم يجداه نفسه.

قالت سناء:

–ألا تجدين أن جمال يبذل جهدا خارقا لإرضاء جنان.

قالت يمامة:

–وهذه هي المشكلة .. لم يعد هو نفسه.. فراح يبذل المجهود الخارق ليعود كما كان.. كما تريده..

رفعت يمامة سماعة الهاتف لكي تطلب من جنان انتظارهما عند نقطة دلالة قريبة من بيتها الجديد.. لم يتوفر الخط.. ألو.. ألو.. ألو.. ألو انتظرت يمامة.. ابتسمت بلا داع.. تنهدت ثم قالت:

–لا فائدة .. الخطوط في حالة خرب!

قالت سناء:

–حسن ينتظرنا في البيت.. لنذهب إليه لعلنا نتوفر على خط شاغر للهاتف من هناك..

2

رأت رأسه موضوعا فوق السياج وهو يطلع من خلفه كالجني

ويحييها:

–صباح الخير..

فزت في البداية ..للتو كان في رأسها.. ثم ارتجف قلبها.. وشمت في الهواء رائحة فلفل حلو:

–صباح الخير...

رفع يده في الهواء وهو يحمل قدرا مغطى ففاحت الرائحة وعبرت السياج.. قالت:

–ما هذا؟

فقال:

–أعددت لك حساء من الخضروات.. إنه مفيد لفترة النقاهة.

لم تره منذ أن عادها وهي راقدة في الفراش.. مدت يدها.. مد يده.. لسعتها سخونة القدر .. واستغربت كيف احتملت أصابعه كل تلك السخونة.. قالت :

–أتجيد الطبخ أيضا؟

مطّ أصابعه ليطرد منها السخونة.. فنقضت ما قالته لها مرآتها قبل قليل، كل هزة رأس ونظرة عين تعيد وتصقل هذا التأكيد« لا أريده.. وانتهى الأمر»...

–يوووووه.. أجيد أشياء كثيرة..

قالت بصوت خفيض:

–ما أنت لخاطر الله؟

قال بصوت أخفض وهويقطع كلماته ويجعلها منغمة:

–أنا مثنى.. ومثلث.. ومربع .. ومخمس.. وما شئت من الأشكال..

صاح كاظم البغدادي بصوت عال في حديقة بيته:

–أم عمر .. وين صرت؟

قالت له وصوتها يمشي الهوينى:

–انتظر قليلا..

التفت صوتها لصوت صغيرها الذي كان يبكي:

–ما بك

–سعد ضربني بالحجارة؟

–هل آذاك؟

–نعم.. هنا في مرفقي.

–هيا اسكت.. ليس هناك.. دم .. ألا تدخل؟

–ليس الآن.. أريد ان ألعب.. أليست عطلة؟

–لا تناديني كل لحظة.. أبوك يريدني.

–وين صرت .. فايقة وين صرت؟

—إجيت .

داخل البيت كان فستان خالتها الذي خاطته لها وتركت ذيله بلا تثبيت .. يتحرك معها وهي تتقدم باتجاه الهول.. قالت :

—بالله عليك يا يمامة وأنت ذاهبة لابتياع الخبز، هات لي بكرة خيوط بيضاء.. مكوك ماكنة الخياطة أصبح يترك خلفه عقدا من الخيوط.. وقد جعل الخيط ينفد .

نظرت إلى ما بين يدي يمامة وقالت :

—ولكن ما هذا الذي في يدك؟

خافت يمامة أن تقول في البدء.. ثم وضعت القدر بسرعة على منضدة المطبخ وقالت :

—من مثنى . .إنه حساء .

ثم استدارت خارجة على عجل.. الحر شديد في الزقاق، وسحابة من الغبار تحبو على مهل وتوشك على الانقضاض عليه، قال كاظم البغدادي وهو يرفع رأسه باتجاه عذوق النخلة موجها كلامه إلى موفق :

—تره ما يراد لها روحة للقاضي.. البنت تخبلت!!!

لا زالوا ينادون لمياء بالبنت بالرغم من أنها تجاوزت الخمسين من عمرها.. وشاب شعرها وتساقطت بعض أسنانها. وكان أخوها موفق يجلس أعلى النخلة الوحيدة في حديقة كاظم البغدادي

ويقطف منها بعض التمر ويضعه في كيس من النايلون شبه ممتلئ.

بعد خطوات .. كان عمر قد بطح دراجته على الأرض وأقعى ينبش الأرض الخربة المجاورة للزقاق بأصابعه بحثا عن شيء ما.. قالت له يمامة من بعيد:

—حاذر لئلا تجرح.. ماذا تفعل؟

قال:

—أبحث عن حصى.

دراجته ذات الخرز الملونة منطرحة مؤقتا على الرصيف.. توحي بأن قيامتها في أي لحظة أمر ممكن. وسكونها مشوب بالغرابة والحذر ما دام عمر ينظر اليها بين الحين والآخر نظرة قائد عسكري خططه العسكرية جاهزة على الدوام. أصابعه كانت ممسكة بكيسٍ أسود يعبث به الهواء المغبر ويجعله يتراقص منفوخا تارة ومنخسفاً تارة أخرى، وقريبا من الشارع كان بائع السكائر قد افترش ظل الكالبتوس من جديد وعاد يتسلى بكلماته المتقاطعة.. سحابة الغبار نهضت فجأة ودارت في دوامة عاصفة حملت معها بعض النفايات والأكياس وأغلفة الحلوى الملوثة بسمنة الكاكاو. حانت منها التفاتة إلى حيث يقعي عمر باحثا عن الحصى فوجدته قد وقف وسكن واجما ينظر إلى شيء ما أمامه على الأرض.. ويتلفت.. أنقذته يمامة من ذهوله، فصاح بهلع:

-خالة يمامة... خالة يمامة.. تعالي وانظري..

بينه وبينها أجمة من العاقول.. حدس قلبها بمصيبة.. اشرأبت ثم عثرت على ممر ترابي ضيق تتناوسه مسرعة كالسهام حيات أم سليمان.. وتحيط به الأشواك من الجانبين كان عمر قد ابتعد عن المكان الذي كان يجلس فيه ووقف ينظر من بعيد إلى الشيء الذي رآه قبل قليل مدفونا في التراب.. وصلت يمامة إلى ذلك الشيء وصارت تنظر إليه أيضا ولكن من قريب..

إنه تحت التراب.. كأنه أصابع.. أو كف مقطوع لامرأة أظافرها مطلية بلون أحمر..

قال عمر بهلع:

-إنها كف إنسان.. أليس كذلك؟

اقترب عمر.. دار حولها ..ثم وقف على مقربة وتشجع قليلاً على النظر. قالت يمامة وهي تتلمس حدسا آخر إلى المصيبة:

-نعم إنها كف امرأة.



أغلق الزقاق من جانبيه.. وادعى كاظم البغدادي أنه يتشمم فعلا ومنذ أيام رائحة نتنة في الجوار.. وانهزم حرّ الظهيرة اللاهب لأول مرة في هذا الزقاق أمام حدث مهول. أخرج الرجال المجتمعون قريبا من الحاجز الذي أقامته الشرطة، كراسي وضعوها في الظل وجلسوا عليها.. وأعطى ذلك الانقلاب المفاجئ في الزقاق، الأطفال ضوءا أخضر لإخراج دراجاتهم من البيوت بشكل معلن بعد أن كانوا يفعلون ذلك في الخفاء بعد قيلولة الأهل فيما مضى، ودارت رماشات التحذير الزرقاء فوق سقوف السيارات وصمتت صافراتها، منذ ساعات كانت كافية لكي تقلب الشرطة الزقاق على بطانته وتخرج كل أهالي الزقاق بنفضه واحدة من داخل البيوت إلى خارجها.. وعقد النسوة حلقات نمّ صغيرة أعادت من خلالها، وزادت كل ما قيل عن تحسين فيما مضى ولم يصدقه أحد.. تذكر الرجال قصة حبه لابنة عمه وتذكرت النسوة ما قالته حياة ابنة هنوة عن أبيها السجين زوج زوجته الأولى، وقلن إنه ربما خرج من السجن وجاء يبحث عن ابنته فقتلها حين وجدها تقيم مع زوج أمها في بيت واحد.

ووقف زوج هنوة في باب البيت بارد النظرات وسترة بجامته مزررة على استعجال يتدلى جانب منها تحت جانب آخر بفعل زر أخير طاش ولم يستقر في العروة التي تخصه ..فتساءلت النسوة إن كان هو الذي قتل حياة ابنة هنوة من أجل الإرث؟.. ولكن لماذا يقتلها.. وحقه في الإرث محفوظ؟ ربما أرادت الاستحواذ على كل شيء.. أو ربما دبرت له أمرا ما فقرر التخلص منها.. أو يكون

–أستغفر الله– قد تحرش بها ثم قتلها.. الشيطان ما ميت.. ولكن ماذا يفعل رجال الشرطة؟ هل يحققون معه؟.. إنهم لا زالوا يبحثون في الحديقة والخرابة والبيت.. فهل عثروا على جثتها بعد؟.. نعم كاظم البغدادي هو من بلغ، حنّ إلى الشرطة وأيامها.. ولكن هذا ليس من عمل اللصوص.. يقولون إن أطرافها في الخرابة واللحم مفروم ومحفوظ في الثلاجة.. أيكون والدها هو من جاء إلى البيت ووجدها متلبسة بعمل من أعمال الشيطان؟.. أستغفر الله العلي العظيم.. هذا غير ممكن.. لا عيني لا.. هذا مستحيل.. وأدلت الكثير من النسوة باعترافات غريبة لم يكن لها داع، سوى التداعي، حول أوضاع في الفراش ياما أسرت هنوة لهن بها عن طريق المزاح، مزاحها المعتاد، كان زوجها يتماجن بها أيام شبابه الأولى.. ثم ترحمن عليها وعلى أيام الحدائق وأحاديث نسوان الحدائق. وارتفع أذان الظهر فقطع عليهن حبال المشانق التي ينصبنها للغائبين. حوقلن وكبرن وأعلن التوبة والاستغفار ولعن الشيطان الذي قادهن إلى مثل هذا الحديث.. ثم نسين بسرعة وأعدن السيرة الأولى.. ألم يعثروا على الرأس بعد، ولكن اللص لا يقطع ضحاياه إلى أشلاء.. وزوج هنوة ماذا فعلوا به؟.. ليس ثمة أحد غيره معها في البيت.. وكاظم البغدادي لازال يدور مع الشرطة من مكان إلى آخر؟.. نعم لم يكن ثمة أحد غير زوج أمها معها في البيت.. هل يكون من فعلها أحد غيره من الزقاق؟ الله أعلم.. ولكن هل أنت يا يمامة أول من عثر على الكف المقطوع؟

–كلا . . إنه عمر . .

الأطفال الذين استنفدوا أقصى طاقة ممكنة من الذهاب والإياب بين سيارتي الشرطة الموضوعتين في طرفي الزقاق تركوا درجاتهم في نهاية المطاف، واقتربوا كثيرا من سيارة ضابط الشرطة الواقفة قرب باب بيت هنوة ومرروا أصابعهم عليها، ثم ظلوا يتحسسونها في أكثر من مكان . . عمر الذي اقترب من السائق وظل يضحك بخجل طلب منه أخيراً أن يدعه يستعمل هاتفه اللاسلكي . . فردعه السائق وأمره بالابتعاد . . .

بعد قليل وصل رجال مدنيون يحملون آلات وعدا للحفر . . ودخلوا إلى الحديقة ومعهم رجل يحمل آلة تصوير ولم يسمح لأحد غير رجال الشرطة بالتجول خلف الحاجز الذي ضربوه حول المنزل والخرابة . . ولم تكن لهم حاجة لمنع أحد من الدخول، فقد دب الخوف في النفوس وأقام حاجزا آخر حول البيت الذي أصبح فجأة مظلما ونشازا ولا ينتمي إلى باقي البيوت .وظل الحفارون يحفرون في الحديقة والأطفال يتفرجون عليهم من فتحات الأسيجة . . . ولما يئس بعض الرجال من معرفة الخبر اليقين صعدوا إلى السطوح وراحوا يتنادون على بعضهم البعض متبادلين الروايات والقصص عما يرونه هناك من فوق القمم. الرأس أصبح رؤوسا عديدة . . وحياة أصبحت حيوات، وقال أخوة مثنى إن أشلاءها متناثرة على أرض الحديقة، وعظامها ظاهرة للعيان، وقال عمر إنه رأى رأسها مقطوعا وموضوعا فوق برميل النفط، فصحح

له كاظم البغدادي من فوق جذع النخلة وقال لابنه:

-لا.. بابا... هذا ليس رأس.. إنه الجليكان.[1]

وتمشت لمياء في الزقاق جيئة وذهابا غير مبالية بسيارات الشرطة وبما يحدث.. وتراءى ليمامة أنها رأتها تحمل أكياساً من اللحم المفروم تأتي بها من مكان مجهول وتطعمها للقطط وحدثت تلك الرؤيا في نفس اللحظة التي حمل فيها الحفارون أكياسا سوداء كبيرة محكمة الإغلاق وأخرجوها من داخل البيت ووضعوها في سيارات الشرطة.. وتعالت النداءات عند الغروب: أين القاتل وأين المقتول؟ هي هي فعلا حياة ابنة هنوة؟.. أم أنها امرأة غيرها؟ .. وهل هي مقطعة إلى أشلاء فعلا ومحفوظة داخل الثلاجة؟. أم أن هذا كله غلواء كلام وهلوسات؟.. أليسوا هم جيران هذا البيت؟ فلماذا طال صمت من هم داخل البيت؟.. كان الظلام قد بدأ يشرق.. والخوف من أضواء النيون التي اشتعلت في حديقة بيت هنوة أبعد عن الطريق كل جسد حي.. لعله لا زال في الحديقة إصبع مقطوع أو أنف مجدوع أو خصلة شعر ساقطة.. أو رأس مجزوز جعله حلول الظلام يفتح عينا ويغلق أخرى قبل أن يتدحرج بعيدا عن الجسد.. حسن جاء إلى يمامة وقال لها:

-أتذكرين عندما رأيتها خارجة من بيت هنوة في الفجر؟

---

(1) الجليكان: حاوية من البلاستيك يوضع فيها النفط.

قالت يمامة وقلبها لا يزال يرتجف منذ أن رأت الكف ذات الأظافر المطلية باللون الأحمر مقطوعة ومدفونة في أرض الخرابة:

-من ؟ رأيت من؟

قال حسن:

-لمياء.. أتكون لها علاقة بالأمر؟

قالت يمامة:

-لا أدري.

ثوب حياة كان ناعما كالحرير.. ولم يكن بإمكان يمامة التقاط وجهها بسهولة ما بين سعفات النخيل.. إلا أنها رأت زوج هنوة يداعب ثمرة في فمها.. ثم يأكلها بعدها ويتلذذ.. وثوبها الفاضح كان يكشف عن لحم أبيض وفير.. فكيف يكون للمياء ذات الجرم الصغير أن تقتلها؟ وهل تكون ؟ أو هل يكون من فعل ذلك زوج أمها؟ أو والدها؟ أو لص؟ أو هل يكون ...؟ لا زال رجال الشرطة يبحثون في الحديقة.. وحكاية الأشلاء غير مؤكدة، وقال رجال الزقاق : إن زوج هنوة انهار وأعلن في نوبة اندفاع أعمى أنه ليس القاتل.. وصعدت النسوة فوق السطوح ينتظرن ما سيحدث بعد آخر ما قاله الرجال.. فكان آخر ما شاهدنه من هناك زوج هنوة وهو يخرج مرتديا بدلته السفاري الرصاصية، يقتاده اثنان من رجال الشرطة يتقدمهم ضابط برتبة مقدم يتحدث بالمثاقيل، وبالكاد استطاع رجال الزقاق استخراج الكلام منه وسماعه وهو يقول:

-لم نعثر على شيء.. ليس هناك جثة لأحد..

## -4-

كـان رجـال الزقـاق بأكـمله مـسـتـغـرقين في القـيلولة ونسـاؤه منشغلات بإعداد شاي العصر.. والأطفال ينتشرون بين الحدائق وأرصفة الزقاق.. عندما عاد تحسين الى بيته بعد شهر من حجزه للتحقيق ليقول إنه اكتشف أن حياة لم تمت وإنما قد هربت وأخذت معها صندوقاً من الحليّ الذهبية كان خبأه تحت بلاطة من بلاطات الحمام اختارها بعناية فائقة.. صندوق ممتلىء، كما قال، بالملاوي والحجول والزناديات والقردونات والأساور والأقراط والأحزمة والخواتم.. كل مصاغ هنوة التي لم تدع جزءاً في جسمها يمكن له أن يثقب أو يزين بالذهب إلا وصاغت له أداة من أدوات الزينة.. ظلت حياة، كما قال، تمشط بلاطات البيت واحدة واحدة حتى عثرت على صندوق الذهب أخيراً.. ولم يعثر لحياة على أثر بعد ذلك. ويمامة التي كانت تدخل السرور الى قلب لمياء بكيس أسود مملوء بفضلات الطعام. رفعت رأسها الى موفق الذي حمل خبر عودة تحسين الى بيته وقالت بذهول:

–والكف المقطوعة؟ ألم تكن لحياة.

–كلا

–لمن هي إذن؟

–لا أحد يعرف، ولكن قيل إنها سوداء.. وحياة كانت حنطية اللون..

ثم صمت قليلا وقال:

-هل كانت الكف سوداء يا يمامة؟

تفاجأت يمامة للسؤال وارتجت.. كأنما ليست هي وإنما امرأة أخرى هي التي رأت تلك الكف المقطوعة في ذلك اليوم العاصف في الخرابة.. فلماذا يسألها موفق ذلك السؤال..

قالت له وكأنها لم تسمع السؤال:

-ولكن إذا لم تكن حياة قد قتلت.. فأين تكون؟

رفع موفق حاجبيه بلا مبالاة ثم قال:

-ها هو تحسين قد أخلي سبيله حتى بدون كفالة.. فلا علاقة له إذن بتلك الكف المقطوعة.

ثم نظر إلى لمياء من طرف هازئ وقال:

وبالكاد عثروا في حديقته على جثة قط.. ويبدو أن من دفنه هناك شخص ممسوس.

ماءت لمياء بلا صوت.. فتحت فمها فقط وماءت ولكن دون أن يصدر من فمها أي صوت.. للتو فطنت يمامة أن لمياء هزلت وذوت وتضاءلت حتى أصبحت تشبه القطط إلى حد كبير وأنها ما كان يمكن أن تعزو وجودها الخافر ذاك في بيت هنوة فجراً إلاّ لشيء له علاقة بالقطط أو طعام القطط.. أو قبور القطط.

-ولكن أي قدر هذا الذي جعل الكف المقطوعة ترمى في الخرابة التي تجاوز بيت هنوة.. في اليوم نفسه الذي تختفي فيه حياة؟

-يقولون إنها مصادفة.. مصادفة ليس إلا.

-ألم يفتشوا البيت وحديقته شبراً شبراً.. كيف لم ينتبهوا إلى تلك البلاطة المكسورة في الحمام.

-لا أعرف .. ربما فاتهم ذلك.. ربما في غياب تحسين عادت حياة الى البيت وتسللت إليه في غفلة منا ثم فص ملح وذاب.

لمياء أصبحت مشغولة بتفريغ محتويات الكيس الأسود وتقديمها الى ثلاث قطط ملحاء عند قدميها .. استغفر موفق ربه وهو ينظر الى أخته فقالت له يمامة:

-يعني أين يمكن أن تكون حياة الان؟

قال موفق وهو لا يزال ينظر إلى يدي أخته المحشورة في الكيس الأسود:

-إنهم يبحثون عنها في كل مكان، إنها موجودة الآن في أي مكان.

ولكن حياة اختفت . غابت عن الزقاق مولّية ظهرها لأي كلام يمكن لزوج أمها أو لأهل الزقاق أن يقولوه، ولم يعد أحد يعرف ماذا يصدق أو ماذا لا يصدق.. تداخلت الوقائع مع التوقعات ولم

تعد غربلة الواحدة عن الأخرى تجدي نفعاً أو تفضي إلى حقيقة مؤكدة. قالت جدتها إنها خرجت منذ عدة شهور ولم تعد. وقال والدها إنه لم يعد يعرف عنها شيئاً بعد أن انقطعت عن زيارته في سجنه منذ أكثر من عام. وقالت خالة يمامة:

—لم تغنم الرجال.. فغنمت الذهب.

وزاد الكلامَ كلام.

ولمحت فائقة زوجة كاظم البغدادي أنها رأتها تستحم عارية في صباح باكر في حديقة منزل أمها وأنها رأتها في صباح آخر تستبدل من الصبية الدوارين ملابس قديمة ببضائع من البلاستك ايرانية المنشأ وهي لا تضع على جسمها سوى روب شفاف تترأرأ من تحته ملابسها الداخلية. أما زوجها كاظم البغدادي وهو نفسه الذي قال ليلة اختفائها، إنه قد تشمم رائحة نتنة تنبعث من بيت هنوة فقد قال هذه المرة إنه قد رآها بعد اختفائها بيوم واحد تقف عند الغروب أمام الباب الخارجي لبيت مثنى... ثم تدلف إليه دون أن يفتح لها الباب أحد.. وقالت خالة يمامة:

—ألم أقل لكم إنه لوثة.

فضحكت سناء بذهول وهمست ليمامة بصوت مرتجف:

—ربما يكون صادقاً.. ألم أخبرك بأني أنا أيضاً نظرت من النافذة ذات يوم فرأيتها تقف قرب بابنا... وعندما سألتها عمّا

تريد قالت:

ـ جئت الى حسن كي أسلمه مفاتيح البيت.

سألتها:

ـأي بيت؟

قالت:

ـالبيت الفارغ.

فلما سألتها:

ـومن أنت؟

رمت المفاتيح إلى الحديقة وهربت.. والكلام أورث كلاما.. وحياة أصبحت حيوات.. ولم يأخذ حسن كلام زوجته مأخذ الجد.

وقالت جدتها لضابط التحقيق إن حياة كانت فتاة مستقيمة راجحة العقل حسنة السيرة والسلوك ولكن دبورا أسود لدغها في رأسها قبل سنوات فتورم رأسها عدة أيام وانتابتها آلام شديدة في رأسها في موضع لدغة الدبور، ثم بعد عدة أيام زال الألم من رأسها وفش الورم ولكن حالها لم يعد الى حاله قط. وتغيرت منذ ذلك اليوم إلى إنسانة أخرى طائشة العقل مختلة السلوك، وموفق الذي قال ذلك الكلام وهو يقف في باب دكان حسن الخطاط

أضاف إليه أن حياة لم تهرب إلى مكان بعيد منْ زقاقهم وأنها لا زالت موجودة في مكان ما تتحين الفرص للانقضاض على زوج أمها والاقتصاص منه كما يجب. فقد أصبح من المؤكد أنها قد عرفت بأن البيت أصبح مسجلا باسمه وأنها خرجت من المولد خالية الوفاض إلاّ من كيس الذهب الذي يدعي تحسين أنها قد سرقته من البيت.

-والكف ؟

-لقد جاءت الى هنا من مكان بعيد.. بعيد جدا.. جدا جدا جدا والضابط يقول إن أحسن مكان نبحث فيه عن صاحبة تلك الكف هو أبعد مكان عن هذا الزقاق.. أما بخصوص تزامن اختفاء حياة والذهب مع ظهور تلك الكف اللعينة فيقول الضابط:

-لا أعرف.

حسن علق ساخرا:

-يبدو أن حياة قد وجدت كل تفاهات الدنيا كوميديا سوداء، وذهب أمها هو الشيء الوحيد الذي يستحق العناء.

الضوء العالي المثبت على عمود الكهرباء قرب بيت هنوة يجذب الهوام إليه ويجعلها تبدو كأنها مجرات لامعة تدور حول الشمس وتسرق منها الضياء. فكرت يمامة هل أن حياة لم تذهب

إلى أحد من الناس إنما الآخرون هم الذين حاموا حولها وراودوها عن نفسها وحدثوا أنفسهم بمغانم يكسبونها إذا ما جاؤوا إليها؟

هل كان مجيئها من أجل غنيمة خاطئا بالأساس أم أن الخاطئ هو من استكان لوجودها المشبوه في الزقاق وإقامتها في بيت واحد مع رجل غريب؟! يمامة لم تر الخطأ أعزل بمفرده وإنما رأت من هو الخاطئ، إنها الهوام لا تزال تدور حول الضوء العالي المثبت على عامود الكهرباء المطل على حديقة بيت هنوة . فإذا انطفأ هذا الضوء العالي... لم يعد للهوام وجود...ظلام دامس.. حياة..كان ظهورها المفاجئ منذ البداية ثم اختفاؤها المفاجئ من الزقاق هو لارتكاب الخطأ.. ها قد عادت الراحة الى الجميع برحيلها الذي أقلق راحتهم ذات يوم.. انتظروا من القدر أن يتولى مهمة ذلك الرحيل.. لأن وجودها أثار نزوات وأخطاء وخطايا وتقولات وأطنان من الكلام.. وربما جريمة قتل .. وعندما رحلت تركت خلفها لغز الكف بلا حل وكأنه شيء مؤجل يجب التفكير به طوال العمر مثل أي شيء يجب أن يبقى ناقصا ما دمنا لم نبذل الجهد اللازم للوصول إلى إتمامه.

انتظر أهل الزقاق أن ترحل حياة من تلقاء نفسها، وعندما اختفت وآن أوان الرحيل كان رحيلها غير مكتمل فهي لا تزال موجودة في مكان ما من الزقاق،في ذاكرة أحد ما.. في أصابع أحد ما.. في خطأ ما كانت سببا في حدوثه قصدت أم لم تقصد...

## -5-

أخبرت سناء حسن بما قالته يمامة، فأطرق وجلس على حافة السرير ثم ضمها في النهاية إلى صدره وهو صامت.

في مساء ذلك اليوم، علت زغاريد النساء حتى ساعة متأخرة من الليل.. ولم يكن ثمة داع لأكثر من مصور في مثل هذه المناسبة ولكن سناء تملكها الانفعال فجاءت بمصور فيديو، إضافة إلى المصور الفوتوغرافي الذي كان موجودا أصلا، وحيّت جميع الموجودين في بيت حسن.. فقد حضر وغادر وهو غارق في الصمت.

مرايا البيت اكتظت بوجوه الصبايا وأيديهن القابضة على أقلام الكحل وأصابع أحمر الشفاه ..ولأول مرة أحست يمامة أن النظر إلى المرآة يدوّخها ويجعلها تشعر وكأنها تهبط من علٍ.. كأنها لوحدها في مكان شاسع ومظلم وبعيد، وأن رشات العطر من حولها تصيبها بالذهول وتجعلها تتمنى لو أنها تتوقف في أي لحظة وتستدير.. لتعود أدراجها وتفر.. ولكن تعود إلى أين ؟ وكيف؟ إلى حيث تنتظر وتختار مرة أخرى وتكون مستعدة الاستعداد الكافي لمثل هذا اليوم وهي على مشارف الأربعين.. هه؟!

وأحست أنها تسير فوق الهواء وأن قلبها يهوي...

قال مثنى:

-هل الخميس القادم ملائم لذهابنا إلى المحكمة؟

«المحكمة؟»

فكرت كم مرت بهذا المبنى من قبل.. قادمة أو ذاهبة داخل سيارة بين طرفي الشارع العام الذي يطل عليه.. الآن تتخيله كأنه قاعة امتحان.. وأنها يجب أن تتفقد حقيبتها وتتأكد من أنها قد وضعت بداخلها القلم والممحاة والمسطرة ورقم الجلوس.. راودتها أحلام الطفولة في تلك اللحظة عندما كانت تدخل إلى القاعة الامتحانية وتخرج منها وقد تملكها فرح غامر لأن إجابتها صحيحة ثم تكتشف، في نهاية الحلم، أن الدفتر الامتحاني لا زال معها... وأنها نسيت أن تسلمه إلى مراقبة القاعة.

وضع مثنى الخاتم في اصبعها: فعلت الزغاريد من جديد وتبادلت بعض النسوة تعليقات في غاية الجدية عن ساعة الصفر لتوزيع الكيك والبيبسي كولا.. قال مثنى لها؟

-ها؟ هل الخميس القادم ملائم لعقد القران؟

لم تجد ردا مناسبا .. وخالتها التي لا تزال تحتمل الوقوف مع مثنى في مكان واحد.. قبلتها ضاحكة وتظاهرت بالفرح...

ثم ضحكت جنان ليمامة وقالت:

-ألف مبروك..

جمال زوجها تقدم وبارك لهما.. وكذلك أختا جنان، أفنان وأشجان بعد أن توقفتا عن الرقص للحظات، أما حسن فكان في

مكانه ينظر إليها واجما ولا أحد غيرها يشعر بتلك النظرات.. ولا حتى سناء التي حطّت ضاحكة في كل مكان ثم جاءت تقبلها وتقول لمثنى بمرح:

-كيف استطعت كسر رقبتها؟

فقال ضاحكا:

-استطعت..

وتوجه الجميع إلى الحديقة.. وأصبح أقرباء يمامة وصديقاتها وصديقات الخالة في ساعة الصفر.. وترك مثنى وعروسه وحدهما في غرفة المعيشة.. اقتربت الخالة من نافذة الغرفة وقالت وكأنها تتفقد طفلة لا تهتم كثيرا للطعام:

-هيا.. نحن ننتظركما..

ثم وجهت دعوتها للجميع بصوت عال:

-هيا تفضلوا.

قالت سناء:

-إذن.. ليلتقط المصور بعض الصور..

قال مثنى وصوته يقطر بالوجد:

-ما أروع ما حدث.. لم أنم ليلة أمس لحظة واحدة..

ابتسمت يمامة وقالت:

-حقا ما تقوله سناء كيف استطعت يا مثنى؟

خرجت يداه من جيوبه إلى حضنه وضحك:

-ألم أقل لك أن مواهبي متعددة؟

ثم أخذ أصابعها وشبكها داخل أصابعه.. تمام كما فعل عندما كان يسحبها من الزحام ويبقيها إلى جانبه في كراج العلاوي. قال:

-أخيرا تحقق لي ما أريد..

خالتها عادت وقبلتها بحرارة.. ثم وضعت أمامها طبق الكيك وكأنها تحتفي بطفل جائع عائد لتوه من المدرسة.. غادرت الى الحديقة مرة أخرى.. فقالت يمامة:

-حقا يا مثنى.. كيف تحقق أخيرا؟

دنا من وجهها وتنهد ثم قال:

-إلام طبخت لك حساء الخضروات إذن؟

ضحكت يمامة.. وإن شاءت أن لا تفعل.. ولكن لم يكن بوسعها أن تفعل غير ذلك فقالت:

-الحساء؟!!

قال مثنى:

-نعم.. الحساء..

حذاؤه كان بنيا وفيه أناقة.. أرادت أن تضع قدمها عليه وتدوس على قدمه دونما سبب واضح ولكنها فضلت أن تظل جالسة في مكانها منتصبة القامة وتتصرف كعروس..

قال:

–ما بك.. يمامتي؟ ألا تصدقين؟ ألا تذكرين؟

قالت بصعوبة:

–أذكر ماذا؟

قال:

–ألا تذكرين أني قد أعددته في اليوم نفسه الذي اختفت فيه حياة ابنة هنوة؟

زاد انتصاب ظهرها.. ولم ترد.

–شربته أليس كذلك؟

–..........................

–ذلك أنه موصوف يا حبيبتي للعاشق الذي يريد استمالة قلب امرأة إليه.. ولكن على شرط .. أن يطبخه لها بكف إنسان ميت.

أطرقت بعينيها إلى الأرض مرة أخرى.. ولم ترد. فقال:

–ولكن ليس أي إنسان ميت.. من أي مقبرة..لا ...لا

–..........................

–في حالتنا مثلا.. يجب أن يكون هذا الإنسان امرأة.. وأن تكون عاشقة للرجل الذي يمارس السحر فتنتقل عدوى الغرام منها إلى الحساء ثم إلى قلب المرأة التي ستشربه.

تنهدت يمامة.. ونقلت نظرها من الأرض إلى الخاتم الذي وضعه للتو في إصبعها.. ولم ترد.

–تلك المرأة هي حياة.. وكفها التي وجدت مقطوعة ومرمية في الخرابة كنت قد استعملتها لإعداد الحساء هذا هو الحساء السحري.. إنه يفعل الأعاجيب عندما تطبخه كف امرأة ميتة!!!

–..........................

–صحيح أن مفعوله تأخر شهورا عدة.. ولكنك لم تقاومي مفعوله في النهاية، فوافقت على الزواج . فما رأيك بما فعلته؟

–...............................

التفتت إليه.. وجهه سعيد.. يداه متشبثتان بيدها.. حذاؤه البني على الأرض..

–ها .. ما رأيك؟

ارتخت أصابعها داخل يده... فأطلق ضحكته العالية المجلجلة وقال لها وهو يبكي من شدة الضحك:

–إياك.. إياك.. أن تصدقي هذه المرة؟

ثم ظل يضحك ويضحك ويضحك.. فغرقت يمامة في رمال صمت أبله.. وأحست أنها قد خرجت للتو من قاعة الامتحان والدفتر الامتحاني لا يزال في يدها.. وأن يوم الخميس بعيد ولن يأتي أبدا.. ولفها صهد كالدخان.

# جموع لا مفرد لها

بيت هنوة لا يزال فارغا منذ أن تركه تحسين الى السجن معترفا في نهاية المطاف بأنه قد هاجم حياة بسكين المطبخ عندما رآها في ظلام الليل تخرج من الحمام وكيس الازبال الاسود في يدها لتظفر بالذهب الذي في داخله وتهرب من البيت. وقال إنه ضربها ضربة عاتية قطعت لها كفها اليسرى بعد أن تمسكت بالكيس وتشبثت به الى حد الاستماتة. وقال ايضا انه ليس هو من رمى بتلك الكف الى الخرابة لأن حياة انتشلت الذهب بالكف الأخرى وخرجت من البيت وكفها النازفة لا زالت معلقة في يدها وحاول كلّ واحد من أهل الزقاق تخيل هذا المشهد على هواه فتعددت الخيالات بعدد الأهواء وتجنبت الأحاديث بعض الاحتمالات وفي النهاية لم يستطع أحد منهم قط أن يحتمل أو يصدق كيف يمكن لحياة ان تترك جزءاً من روحها ثاويا تحت أزبال الخرابة وأن تذهل عن يدها النازفة وتمضي لا تلوي على شيء سوى الفرار بكيس أسود من أكياس الزبالة فيه ذهب ... فقال بعضهم لبعض ذاهلين:

- كف بذهب .. تعادل؟ وصفقة فادحة لا سابقة لها في سوق الذهب ولا في أية سوق أخرى من الأسواق.

مصباح عمود الكهرباء العالي مشتعل رغم أن الوقت نهار... وموفق ومثنى وكاظم البغدادي يقفون على الرصيف وهم يرفعون رؤسهم بين الحين والآخر إلى أعلى وينظرون الى السماء... لا يبحثون، على ما يبدو، عن هلال شهر رمضان في رابعة النهار ولكن على الأرجح يتساءلون:

- ترى هل ستضرب أمريكا يوم غد؟

هبت نسمة خفيفة تحركت بفعلها بضعة أثواب منشورة على حبل الغسيل في بيت مثنى...

اشتدت النسمة وصارت عصفاً، فاصطفقت أكمام القمصان بعضها ببعض وتلاعب هواء الصباح بملابس مثنى وملابس اخوته المنشورة فوق بعضها البعض خبط عشواء.. قال مثنى لموفق:

- أمن البحر أم الارض أم السماء سيضربون؟

أغلقت يمامة النافذة العلوية التي كانت تنظر منها إلى جمع الرجال الواقفين خارج بيوتهم في الزقاق وهم ينظرون بين الحين والآخر إلى السماء... وقد ردها منظرهم مرة أخرى الى ذلك اليوم الذي عاد فيه جمال من الأسر حين رأت أهل الزقاق جميعهم يهرعون الى الأبواب فجرا ثم يقفون وهم بين الصحوة والنوم ينتظرون اكتمال حدث ناقص. كأنه لن يكتمل أبداً إذا هم لم يخرجوا من بيوتهم ليروه ويشهدوا اكتماله... كأنهم لا زالوا واقفين هناك في الأبواب يقتفون أثرا خفيا لحدث آخر... كأنهم ما دخلوا قط.. ولن يدخلوا..

رسمتهم يمامة من مكانها في غرفة الرسم... ومن أولهم الى آخرهم.. حتى من قضى منهم نحبه أوغاب عن الزقاق أو اختفى وضاع في ملكوت آخر... جعلتهم وهم يقفون في الأبواب.. يبدون متشابهين مثل أعواد البخور.. قال لها حسن:

- رسمت كل أهل الزقاق بقامات فارعة وأجسام نحيلة

وكأنهم أعواد بخور، والوحيدان اللذان أعطتهما ملامح وجوه وأجسام حقيقة هما:

جمال وحازم. جمال محمولاً فوق موكبه الراقص الذي عاد به من أسره في إيران وفي يده خاتمي زواج، وحازم يقف داخل إطار النافذة العلوية الصغيرة للمرسم والتي يتشكل منظور اللوحة من خلالها.

عمود الكهرباء العالي وزهرة عباد الشمس العملاقة هذان أيضا هما التفصيلان الوحيدان اللذان رسمتهما كما هما عليه في الواقع ووضعت كل واحد منهما في مكانه الصحيح الأول قرب باب بيت هنوة والثاني في حديقة بيت مثني فأصبح وجودهما كشيئين حقيقين بين أعواد بخور فنطازية قوياً ويشير إلى أكثر من تناقص.

قال لها ضاحكا بعد أن نظر مليا الى اللوحة:

- كل أعواد البخور هذه أهي لجمال أم لحازم.

ثم صمت قليلا وقال:

- إنه حازم... أليس كذلك يايمامة؟.

كانت يمامة لا تزال تنظر من النافذة العلوية الى جمع الرجال الواقفين على الرصيف ومعهم مثنى. سورة الهواء كانت قد هدأت.. وأصابع الغيوم انفرجت قليلا عن بعضها البعض فأخذ

ضوء الشمس يشرق من خلالها .

نادتها خالتها صارخة بجزع :

- انقطعت الكهرباء . . هيا الحقي على ما تبقى في المكواة من حرارة .

هبطت يمامة وقميصها مرمي على يدها وهي تحدث نفسها :

- إنها لوحة ليس إلا يا حسن . . أبطالها الواقفون لا يهمون أحدا سوى أنفسهم .وعندما ينظر إليهم بعد عشرات السنين أحد ما سيرى فقط عيونهم السود وهي ترنو مسحورة إلى عزيز عائد من الحرب . . هذا هو الحدث الذي تحدث اللوحة به رائيها . . فإذا ما سمع الرائي وهو ينظر إلى اللوحة أصوات أهل الزقاق تهمهم في أذنيه وكأنها قادمة من كون بعيد . . يكون ما رآه قد انسجم مع ما يسمعه . . وتطابقت الذبذبتان . . . واكتملت اللوحة .

# العيـون السـود

لوحة الغلاف : الفنان عبد الكريم سعدون

إنها لوحة ليس إلا يا ... أبطالها الواقفون لا يهمون أحدا سوى أنفسهم. وعندما ينظر إليهم بعد عشرات السنين أحد ما سيرى فقط عيونهم السود وهي ترنو مسحورة إلى عزيز عائد من الحرب.. هذا هو الحدث الذي تحدث اللوحة به رائيها.. فإذا ما سمع الرائي وهو ينظر إلى اللوحة أصوات أهل الزقاق تهمهم في أذنيه وكأنها قادمة من كون بعيد.. يكون ما رآه قد انسجم مع ما يسمعه.. وتطابقت الذبذبتان... واكتملت اللوحة.



Bibliotheca Alexandrina

1030330





**دار الشروق للنشر والتوزيع**

المركز الرئيسي - عمان/الاردن - تلفون ٤٦١٨١٩٠-٤٦١٨١٩١-٤٦٢٤٣٢١

فاكس ٤٦١٠٠٦٥ - ص.ب ٩٢٦٤٦٣- عمان ١١١١٨ الأردن

فرع الجامعة الأردنية - تلفون : ٥٣٥٨٣٥٢

E-mail: shorokjo@nol.com.jo

www.shorok.com

**وكلاؤنا في فلسطين**

دار الشروق للنشر والتوزيع - رام الله - المنارة - تلفاكس ٢/٢٩٦١٦١٤

دار الشروق للنشر والتوزيع - نابلس - جامعة النجاح - تلفون ٩/٢٣٩٨٨٦٢

دار الشروق للنشر والتوزيع - غزة - الرمال الجنوبي - تلفون : ٦/٢٨٤٧٠٠٣

وكيلنا في -الامارات العربية المتحدة - دبي

**دار الشروق للنشر والتوزيع - دبي**

هاتف : ٢٢٧٣٦٦١ ٤ ٠٠٩٧١ - فاكس : ٢٢٧٣٦٦٩ ٤ ٠٠٩٧١ - ص.ب ٢٥٣٥

E-mail: shorok@emirates.net.ae

ISBN 9957-00-191-4